(قصص قصيرة)

بالمقلوب ..

جاسر الأنور

2015

إهداء

إهداء.. «إلى من علّماني أن أمسك القلم .. أبي الغالي وأمي الحبيبة»..

إهداء.. «إلى من أهداني حكاية لم يكن يعلم أنها ستوحي لي بفكرة »..

إهداء.. «إلى أستاذي العزيز.. سعيد المهدي»..

إهداء.. « إليها »..

جاسر الأنور

مقدمة ملهاش عازه أصلًا..

" ممكن تقرأ قصص كتير وبعد ما تخلص وقت القراءة.. تحس إنك ولا طلعت بفكرة ولا معنى ولا حتى ابتسمت وانت بتقرا.. على الرغم من إنك قريت كلمات ومرادفات معقّدة وتراكيب جمل مبالغ في صياغتها لغويًّا"..

في هذا الكتاب حاولت جاهداً أن أقدم شيء له معني..

بقلم/ جاسر الأنور

1- عمرو البنداري...

في ظل تربية شديدة من أب كان على الدوام تجسيدا حياً لشخصية السيد عبد الجواد أو سي السيد- ولكن دون الانحرافات الأخلاقية كما جاء في الرواية.

تربي عمرو البنداري في عهد عبد الناصر بشكيمته القوية ونظراته الثابتة حتى في أقوى المحن..

وعلى الرغم من وفاة والده وهو لم يزل طالباً في الثانوية العامة، فإن والدته تقّمصت شخصية والده تماماً بعد وفاته على عكس ما كانت قبلها..

كل ذلك جعل منه شخصاً مسئولاً ورجلاً مكتمل الرجولة إلى حد بعيد، فهو لم يعش قط حياة طفل أو شاب له وقت يلهو أو يمرح فيه مثل من هم في مثل عمره.. تخّرج في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية واعتاد أن يستقل القطار المتجه إلى دمنهور كل يوم وهو يكاد لا ينطق بكلمة واحدة..اكتفي فقط بأن يطالع الصحف أو أن يقرأ رواية للعقاد أو طه حسين..

لم يعش حياة الجامعة بمعناها المعروف.. فأصدقاؤه معدودون على أصابع اليد الواحدة.. لم ترق له الرحلات وما شابه.. اللّهم إلا رحلة واحده مع الكلية من أجل أن يرفه عن أخيه الأصغر..

□□□

بعد تخرجه بسنوات قليلة تزوج زيجة عادية كما يفعل أغلب شباب دمنهور.. الأم تبحث عن فتاه مناسبة بين المعارف والأقارب أو الجيران وأحيانا في الأفراح التي تحضرها أيضا.. تطالع البنات المدعوين للحفل ثم تتقصّى عن بعض الفتيات اللاتي تراهن مناسبات للابن.. وبعدها يفعل النصيب والقسمة ما تبقى .. إلى أن تمت الزيجة.. زيجة «عمرو» و«منى»»..

احتاج «عمرو» إلى سيدة على قدرٍ عالٍ جداً من الذكاء لكي تحتوي شخصيته لتجعله دائما يشعر أنه سي السيد، وفي الوقت نفسه تخرج من داخله الشخص الذي يفعل ما تريد هي لأنه يحبها ولأنه أيضا يعلم أنها أبدا لن تخالف له أمراً..

وكانت «منى» حقًّا النصف الجميل في حياته.. عشر سنوات كاملة عاشاها معاً كأجمل ما يكون الزواج..

تفهمه من نظرة وتطيع إشارات أصابعه قبل أن يفعلها.. ويغمرها حبًّا من منبت شعرها حتى أخمص قدمها.. يعشقها ويذوب فيها ذوباناً..

من آن لآخر يأخذ قراراً متعنتاً بشدة ليختبرها فيراها خاضعة مطيعة غير متأففة ولا ساخطة فيزداد حبهّ لها أكثر.. وأكثر..

□□□

ولكن.. لعشر سنوات كاملة عاشاها وحيدين بلا أطفال.. لم يتركا طبيباً لأمراض العقم إلا وذهبوا له عدة مرات لدرجة أنه بنفسه استطاع أن يعالج أكثر من صديق بوصفات أطباء قام بزيارتهم أو بقراءة أشعة أو نتائج تحليل تشبه تحاليله أو أشعته.. وكل هؤلاء الأطباء أجمعوا أنه لا يوجد أيةّ موانع للحمل والإنجاب لا من عنده ولا من عندها..

لم يشكُ منها قطّ بسبب هذا الموضوع ولكن أهمية الإنجاب عندها تزايدت شيئا فشيئا إلى أن طلبت منه الطلاق وتركته لأول مرة وذهبت بيت أهلها معلنة رغبتها في الطلاق..

تركها لتهدأ الأوضاع أياماً قليلة ذهب خلالها ليقابل طبيب جديد لأمراض الذكورة حاملاً معه كل التحاليل والأشعات وحاملًا يأساً أكبر بكثير من أيّ أمل في الشفاء من داء أنكر الأطباء وجوده..

الدكتور «سامي طوسون» استشاري أمراض الذكورة.. هكذا كانت اللافتة الأنيقة على باب العيادة بألوانها الداكنة والإضاءة الهادئة التي تنعكس على المدخل..

قابله الطبيب بابتسامة طبيب خبير وصافحه بحرارة وهو يبدى اندهاشه من كمية التحاليل و الأشعات في يده، مما جعل «عمرو» يتركها بين يدي الطبيب وهو يضيف..

- أنا جبت لحضرتك كل التحاليل والأشعات اللي ممكن تطلبها علشان نوفر وقت يعنى .

ضحك الطبيب واهتزت النظارة الطبية على أنفه وهو يتصفح التقارير والتحاليل..

وما لبث أن رفع رأسه ناحية «عمرو» وترك الورق من يده وقال له مبتسماً :

- بس أنا بقى يا أستاذ «عمرو» عاوز تحليل مش موجود هنا ومحدش طلبه منك قبل كده يا بطل..

- تحليل ايه ده يا دكتور.. أكيد حضرتك التحليل ده موجود هنا..

هز الطبيب رأسه محافظاً على الابتسامة:

- لا والله مش موجود وعموماً هو مش تحليل صعب يعنى ولا حاجة... ده حتى المعمل اللي يعمل التحليل ده جنبي هنا بعد شارعين من هنا.. روحلوهم بس واطلب تحليل حمض الستريك في السائل..

اندهش «عمرو» أنه بعد تسع سنوات من التحاليل والأشعات والفحوصات لازال هناك تحليل لم يقم به قط ولكنه قام بهدوء بعدما أكد للطبيب أنه سيذهب لعمل التحليل وسيعود فوراً..

أمسك الطبيب بالتحليل وطالع نتائجه بتأنٍّ شديد ثم وضع التحليل على المكتب وخلع النظارة الطبيّة وانفرجت من شفتيه ابتسامة عريضة..

- بقى انت بقى يا سيد «عمرو» بقالك تسع سنين مش لاقى علاج ورحت لدكاترة كتير وكلهم معرفوش المشكلة فين؟
- آه.. أيوه يا دكتور والله.. خير؟ فيه ايه؟
- انت عارف يا أستاذ «عمرو» انت علاجك إيه؟ برتقاااااال
- نعم؟؟

- تشرب عصير برتقال كتير وتاكل برتقال وهكتبلك بس على فيتامين سي.. مش أكتر من كده..
- إيه يا دكتور الكلام ده أنا مش فاهم حا...

قاطعه قائلا :

- الحيوانات المنوية عندك بتموت بسرعة بسبب نقص حمض الستريك وعشان كده مش بتخصب البويضة..
- بس كده؟؟؟؟؟؟؟؟
- بس كده.. أسبوع بقى يا سيدي وانت بتاكل برتقال ليل ونهار وتمشى على الفيتامين اللي كتبته لك ده، وتجيلي بعدها ومعاك التحليل الجديد.. عشان منضيعش وقت

قالها ثم ضحك بصوت مسموع وهو يصافح «عمرو» الذي اختفت ملامحه تماما وهو غير مصدق لما يسمعه.. مشكلة حياته حلّها في البرتقال.. البرتقال فقط..

□□□

في القطار إلى دمنهور جلس صامتا كما اعتاد، شاردا من النافذة.. تتراقص أمامه خيالات طفل يناديه «بابا» ويقذف له كرة في الهواء ويجرى منه وهو

يضحك ثم يستدير عندما يمسك به.. يرتمي على صدره وضحكاتهما تملأ الكون..

- تذاكر يا بيه..؟؟

استدار ناحية الرجل العجوز وهو يبرز تذكرته ، ومن خلف الرجل العجوز وجد طفلاً يجلس بجوار أبيه وقد طّوق الرجل ابنه من خلف رقبته ووضع الولد رأسه على صدر الأب..

لأول مرة في حياته يرى الموضوع بتلك الأهمية .. أول مرة يشعر أنه فعلا بحاجة للأطفال.. فقد ملأت «منى» عليه حياته تماما.. ورغم أن كلاً منهما لم يعلم أين المشكلة فإنه لم يفكر قط أن يتركها بسبب عدم الإنجاب..

كيف فكرت هي كذلك؟ وكيف تنازلت عنه بهذه السهولة لمجرد أن السبب قد يكون منه هو؟ كيف إذن تعيش سيدات مع أزواجهن وقد تأكد أن العقم من الرجل؟؟

فكر أن يذهب ليخبرها ما حدث فتنتهي المشكلة وتعود للمنزل ..ولكن ماذا لو كان الطبيب مخطئاً و مر الأسبوع والثاني والثالث ولم يحدث جديد؟ عندها قد تتهمه بالخداع والكذب..

ثم إنه كيف يقبل بأن يكون زواجهما متوقفاً على وجود طفل؟ أين الحب والعشق والعشرة؟؟ وأين احترامها له؟ وأين كرامته؟ رأى أنها أهانته بشده عندما ذهبت لأهلها بهذه الطريقة وقد أخبرت الجميع بأنها تريد أن تصبح أّما وهو لا يستطيع أن يجعلها كذلك.. لا، لم تطعن فقط في الكرامة، لقد طعنت في الرجولة..

أفكار كثيرة وقرارات تناطحت في رأسه وهو يمشى متجهاً إلى بيته في شارع صلاح الدين.. بناية شديدة الفخامة في الميدان..

صعد إلى المنزل واتجه مباشرة إلى الشرفة التي ترى من بعيد " صيدليتها " التي اشتراها لها لتديرها وتعرف كل ما يحدث بها من شرفة بيتها..

لم يستطع أن يتمالك نفسه وقد أمسك بالصحيفة متظاهراً أنه يقرأها وقد أخفضها قليلا ليرى من فوقها الصيدلية من الداخل.. رآها من بعيد وهي تقفخلف البنك.. تحضر دواءً من الرفوف.. وتحاسب الزبائن.. وتصطنع ابتسامة في وجه كل مريض وهى تدعو بالشفاء..

استدارت «منى» ناحية الرفوف وهى تنظر إلى الأدوية وتدّونها.. غالبا في الأجندة التي أهداها إياها ولا تتركها قط ...

ترك الصحيفة عندما تأكد أنها لن تستدير إلا بعد وقت طويل بعدما تنهى تدوين أصناف الأدوية الكثيرة أمامها.. رآها من الخلف وحاول

جاهدا أن يرى الأجندة بيدها.. إلا أنها بجلستها حجبت عنه الرؤية إلى حد ما..

لماذا حتى لم تنظر إلى الشرفة كما أفعل أنا؟ لماذا لم تحاول أن تراني وقد غبت عنها خمسة أيام حتى الآن؟ إنها بدون شك قتلت حبّها لي بداخلها.. أنا الآن رجل فاا.. لا ... إنسان فاشل في نظرها لا أقوى أن أجعلها أُم.

مّر الأسبوع ولم يدخل الشرفة قط.. حتى إنه لا يرد على الهاتف.. ولا يخرج من المنزل.. لم يذهب لزيارة أمه وأخته وأخيه الذين انتقلوا للأسكندرية..

فقط يأكل البرتقال ويشرب عصير البرتقال..

□□□

مرة أخري في القطار.. ولكن هذه المرة يستطيع أن يكون أبا في تسعة أشهر زواج من أية سيدة.. نعم.. من أية سيدة..

أعاد كلمات الطبيب في ذهنه عشرات المرات.. "أهو إنتا كده يا باشمهندس تقدر تخلف من أربعة مرة واحده.. أربعة إيه.. إنتا ممكن تخلّف من عشرة حتى.. بس لو الشرع يسمح"

أجمل إبتسامة في الدنيا ابتسامة «الدكتور سامي».. أول مرة في حياته يحتضن رجلا بهذا الشكل.. صاح بأعلى صوت.. "متشكر يا دكتور متشكر أوى.. أوى.." تناسى العيادة والمرضى والممرضة والساعي وكل شيء.. احتضن الطبيب كأنه أخ لم يره لعشر سنوات.. كأنه أمل عاد إليه من بعد الموت..

من محطة القطار مباشرة إلى بيت أهلها.. صعد الدرج.. طرق الباب.. فتحت حماته الباب وصاحت..

- «عمرو» حبيب قلبي..

رد عليها متجهماً ومادأً يده نحوها في ثبات.. متجاهلا يديها اللتان فتحتهما لتحتضنه..

- أهلا يا طنط.. الأستاذ «محمود» هنا؟

- مانتا عارف يا بني إنه بيبقى هنا كل يوم خميس.. مجيتش بدري ليه كنت تتغدى معانا ..حتى نطلع الشيطان اللى بينكو ده يا بني..

- شيطان إيه؟ مفيش شياطين ولا حاجة.. ناديلى الأستاذ «محمود» لو سمحتى..

أطرقت السيدة رأسها في تأثر واضح واستدارت متمتمة..

- ربنا يستركو يا بني ويهدي سركو يا رب

بعد دقيقة واحده كان «محمود» يصافحه مصافحة رسمية..

- إزيك يا باشمهندس.. وإيه أخبار الشغل؟.. اتفضل اتفضل..

أشار له بالجلوس فجلس رافعاً رأسه لأعلى.. ناظراً مباشرة إلى أعين السيد «محمود» نظرات قوية راسخة.. ثم أردف..

- باختصار يا أستاذ «محمود» علشان احنا كبار على الكلام اللي مالوش لزمة.. أنا مراتي عندكو هنا وأنا جاى آخدها..

- اهدى بس يا «عمرو».. الأمور ما تتحلش كده أبداً..

- أنا هادى جدا يا أستاذ «محمود».. وإنتا عارفني كويس وعارف إني مش بحب أعيد كلامي مرتين..

- إنتا عارف يا باشمهندس إن انتو مالكوش غير بعض.. ده دلع ستات يا هندسة..

- خلاص.. لو مالناش غير بعض زى ما بتقول فأنا قدامك أهو وبقولك أنا جاي آخد مراتي بيتها..

- مانتا عارف ايه سبب الحكاية دى.. ودي حاجة محتاجة منك كلمتين حلوين والأمور تتحل..

- أنا مقلتش كلام وحش علشان أصلحه بكلام حلو يا أستاذ «محمود»..

هبّ واقفا ومد يده ليصافح «محمود» الذي قام بدوره..

- أنا خلصت كلامي كده يا أستاذ «محمود» وجيتلك لأنك إنتا أخوها الكبير وفي مقام والدها الله يرحمه.. وإن كانت مش جاهزة دلوقتي فأنا مستني حضرتك ترجعها البيت لحد بكره العصر..

ولو مجيتش حضرتك أنا هاجيلك العشاء في المحل بتاعك تحت.. سلامو عليكم

- استنى بس يا «عمرو» ميصّحش كده.. إحنا بنتكلم..

- مع السلامة يا أستاذ «محمود»..

اتجه نحو الباب.. في حين صاحت السيدة..

- الشاي يا بني.. استنى..

□□□

يوماً واحداً فقط مّر وكأنه الدهر كله.. رأى فيه عشر سنوات من حياته.. مرت أمام عينيه في الاّشيء وعلى صفحات الجرائد وفي وجوه المصلين يوم الجمعة.. في كل شيء.. كان يراها.. أجمل سنوات عمره..

مّر العصر والمغرب ولم يحدث شيء.. فقط مكالمات هاتفية لم يرد عليها.. فقد اتخذ قراره بوضوح وأبلغهم أيضا بهذا القرار.. والوقت انتهى..

اتجه إلى محل أخيها في شبرا دمنهور.. حاملا حقيبته السوداء.. مرتديا بدلة سوداء أنيقة..

- السلام عليكم يا أستاذ «محمود»..

- أهلا اتفضل يا «عمرو».. اتجه نحوه مرحبا ونادى بصوت عالي "الشاي يا بني".

- أنا مش جاي أشرب شاي يا «محمود».. اتفضل.. ده مؤخر أختك.. وبكره هستناك الساعة عشرة الصبح عند الشيخ هاشم البرماوي.. وقدامكم أسبوع تكونوا فضيتوا الصيدلية وشلتو الأدوية اللي فيها..

هبّ «عمرو» واقفاً وسط ذهول الرجل الذي تعثرت الكلمات بين شفتيه ولم يستطع أن يرد ببنت شفة..

وتمّ الطلاق.. ومّر الأسبوع وأزيلت لافتة الصيدلية وكذلك بعض أجزاء من الموبيليا أخذوها بعد الاتفاق معه.. واشترى بدلا منها في غضون أسبوع..

على مدى شهر كامل عاش وحيدا في هذا المنزل بدونها.. ذهب إلى العمل ليمدد فترة إجازته.. وهناك قابل المهندس "أشرف" الذي طالما ألحّ عليه أن يعمل بشركته بالخليج.. وفي هذه المرة وافق على الفور وجهز حقيبته وسافر إلى الإمارات..

□□□

مرت سنة كاملة وهو يعمل أكثر من عشر ساعات يوميا لكي ينسى.. ولكنه لم ينسها يوما قط.. فكر أن يعود ولكن منعته كرامته.. فكر أن يوسط أحدا ليعيد المياه إلى مجاريها ولكن صورتها وهى تعطى ظهرها لباب الصيدليةكبّ لت بداخله كل رغبات العوده.. هي لم تهتم قط أن تراه كما فعل هو ..إذن فالحب مات بينهما إلى الأبد..

عاد إلى مصر بعد السنة.. ذهب إلى المنزل واتصل بأخته التي عاتبته كثيرا أنه لم يخبرها بميعاد قدومه لتنتظره في المطار.. ثم فتح الشرفة وتطلع إلى المحل المغلق الذي لم يفتحه منذ أن تسلمه من الأستاذ «محمود» مطلقا..

خطر بباله أن يسأل عنها ولكن أراد أن يبقى الأمر سرا لا يصل إلى علمها أو علم أحد من أهلها.. تذكر صديقه القديم والذي يسكن بجوار بيت أهلها في شبرا دمنهور.. بحث عن هاتفه واتصل به.. بعد كلمات الترحيب والتعبير عن السعادة بالمكالمة وكذلك اشتياق لصداقة الماضي البعيد.. سأله صديقه عن حاله وهل تزوج بالخارج أم لا وعندها أجابه بالنفي واستطرد أنه لا يفكر في الزواج في هذا الوقت.. ربما يتزوج بعد أن ينتهي عقده بالخارج ويعود نهائيا إلى مصر..

ألقى صاحبه باللوم عليه على هذا التفكير الانهزامي..

- يا «عمرو» عش حياتك وانس زى ما هي نسيت.. أهي كلها كام شهر وتخلف.. اتجوز يا «عمرو» والحق عيش حياتك.... الحياة مبتقفش على حد ولا بتستنى حد..

لم يجد ما يرد به على تلك المفاجأة.. فقد غاب عقله عن الوعي للحظات قبل أن يقول:

- معلش يا «حسام» أنا مضطر أقفل دلوقتي.. مع السلامة..

قالها وارتمى على الأريكة ولم يتمالك نفسه على حبس دموعه التي بلّلت الوسادة.. بكى كما لم يبك من قبل..

ساعتان كاملتان من البكاء وهو حتى لم يغير ملابسه التي سافر بها من دبي..

قام بعزم شديد واتجه نحو الشرفة فأغلقها ثم ذهب إلى الهاتف واتصل بسمسار يعرفه..

- لسه عاوز تشترى المحل بتاعي يا ريس «غريب»؟

- أهلا أهلا باشمهندس... إزي حضرتك؟

- الحمد لله.. ها.. لسه عاوز المحل..

- ياريت يا باشمهندس... وزبونك جاهز من بكره...

- لأ.. النهاردة.. تجيبه بعد العشاء يشوف المحل ونتفق على كل حاجة..

- تحت أمرك يا باشا..

ألقى بنفسه على الأريكة وأخذ نصف قرص منوم من حقيبة سفره بعدما ضبط المنبه.. ثم غطّ في نوم عميق..

□□□

استيقظ على دقات المنبه المزعجة قبيل العشاء ثم غير ملابسه ونزل نحو المحل.. فتحه ليجده خاليا تماما إلا من البنك وكرسيين وأرفف يستقر فوقها غبار كثيف..

نادى على بواب عمارته لينظف المحل والأرفف بينما جلس بالخارج على الكرسي منتظرا السمسار....

- لقيت دي وأني بنضّف يا باشا..

هكذا قاطع البواب صمته وقد أمسك بيده الأجندة القديمة.. أخذها منه بسرعة وكأنّما كان يبحث عنها منذ زمن..

فتحها في مكان القلم الذي ظل بها لأكثر من سنة..

أزاح الغبار بيده ليجد خطّها.. خط يدها.. وقد كتبت..

«حبيبي نفسي ف حاجة منه..

نفسي ف ولد.. يبقى شبهه.. فيه ملامحه..

أو ف بنت تكون حبيبته.. ولو جرحته أو ضايقته.. في عنيها هي ينسى جرحه..

ولو جه يومي قبل يومه.. ولادنا ينسوه همومه..

حبيبي نفسي ف ابن منه.. حتة منه.. فيه حنانه.. فيه جنانه..

وفيه عقله وروحه ورجولته..»

قرأ الكلمات بتمّعن وأمسك الأجندة بقوة فشعر بشيء صلب داخل الأجندة ... فتح الأجندة على ذلك الشيء ليجده مرآة..

نعم.. مرآة صغيرة.. وضعتها في الأجندة ... ولكن لماذا؟؟

برقت الفكرة برأسه.. قام بسرعة ساحباً الكرسي ناحية البنك..

فزع البواب للحركة السريعة وصوت احتكاك الكرسي بالأرض في عنف..

- في إيه يا باشا؟.. طب عنك انتا الكرسي أنا أشيلهولك..

تجاهل كل ذلك تماما حتى وضع الكرسي خلف البنك وجلس عليه وأعطى ظهره للباب وأمسك الأجندة بيده واضعًا المرآة بين صفحاتها ونظر في المرآة فوجد مصباح شرفة بيته واضحاً أمامه..

تمت بحمد الله ...

2- ورقة.. ودماء..

كانت الأمطار الغزيرة تحجب عنه الرؤية

تجعله لا يرى أمامه بوضوح

لكنه كان يرى تماما ما بداخله

تذكر تلك الليلة

التي قابلته فيها

وكانت آخر مرة تلامست أيديهما

تذكرا في هذه المرة سنوات طويلة عاشاها سويا

بكل ما حملته من أفراح وأحزان

ابتسامات ودموع

تذكرا كل شيء

وقبل أن ترحل أعطته ورقة

تحمل وعدا طالما تمناه

وعدته بأنه مهما حدث

لن تكون إلا له..

لن تكون لرجل آخر..

أخبرته فيها بأنّها لن تستطيع أن تقابله مرة أخرى

لأن أهلها علموا بالأمر..

لأنها رفضت أكثر من عريس

الأمر الذي جعلهم يشكون في أمرها

ولذلك قالت له في تلك الورقة

" حبيبي....

إن منعونا أن نلتقي

فلن يمنعونا أن نكمل"

كان يقرأ الكلمات فيطيّ ات قلبه

ولا يرى إلا لحظة وداعهما الأخيرة

ويده تطبق على الورقة في إحكام...

سنوات وسنوات مرت ..

لكنه يسمع اللقاء مرات ومرات..

بكل تفاصيله..

تذكر تلك الوردة الحمراء

التي كانت آخر إهداء إليها

تذكر الليلة التي سهرها ليكتب لها كلمة أحبك على كل وريقات تلك الوردة..

يسير ويسير..

والأمطار الغزيرة الباردة اختلطت بدموعه الحارة

لا يرى سوى صورتها المطبوعة في جدران قلبه

وأصابعه تطبق على الورقه أكثر

وأكثر...

يسمع أصوات ضحكاتها

عندما كان يقلد صوت الببغاء الذي أهداه لها..

يسمع صوت الأمواج وهما يسيران بعيدا عن الناس..

أمام البحر في عز الشتاء..

يسمع صوتا آخر..

حادًا..

يتصاعد...

ويتصاعد...

يقترب ..

ويقترب ..

يحدث ضجيجاً وسط تلك الذكريات

حتى.....

حدث التصادم العنيف

صدمته السيارة المسرعة في عنف

وسقط وسط الدماء

وتراخت أصابعه

والورقة لا تزل في يده

هرول الناس وسط الأمطار

وهرول الأشخاص الثلاثة من السيارة الفارهة

والسائق يرد على سباب الناس..

ويقسم ألف قسم أنه أطلق بوق السيارة..

ومنعته المياه من سرعة التوقف

وزوجته تبكى من منظر الدماء

وأخوها يربّت على كتفها ويدير ظهرها عن المنظر

اقترب الجميع من الجثة

والسائق في صراع مع المارة

واقترب الأخ وزوجة السائق من الجثة في محاولة لمعرفة هوية القتيل

بحثا في جيوبه

ولكن دون جدوى

لمحت هي تلك الورقة في يده

وقد تشابكت كلماتها إلى حد ما بفعل المطر

ولكن المرأة استمرت في البكاء

وازداد بكاؤها

إلى أقصى حد

وتصاعد نواحها

بدرجة لفتت انتباه الناس المذعورين

كل ذلك مع أنها لم تستطع قراءة كل كلمات الورقة

لكنها كانت تعلم تماما كل حرف..

لأنها حتمًا تعرف خط يدها جيدًا..

تمت بحمد الله ...

□□□

3- طبيب جراح...

أفاق من نومه على دقّة الساعة وذهب كالمعتاد ليأخذ حمامه الدافئ، وبعدها ارتدى المعطف الأبيض وخرج من غرفته «إلى «ميز» المستشفى الذي يعمل بها....

- الدكتور «حسن» مثال لشاب ناجح تفوق دوماً في دراسته وبعدها التحق بكلية الطب وكان من أوائل دفعته وبعدها أمضى سنة «التكليف» السخيفة بكل ما تحمله الكلمة من معنى..

في «الميز» كان يجلس دائماً مع المرضى «المجانين» أولئك الذين جنانهم من النوع الهادئ الذي تستطيع معه أن تطمئن على رقبتك من ضربة سكينة وعلى غرفتك من «حريق» على سبيل المزاح..

وهو يتناول طعامه تذكر أيام «الشقاوة» في الكلية وراودته صور قديمة لم ينسها يوماً وهو يمرح مع زملائه في رحلة الكلية في الأسكندرية ويتناوبون إلقاء النكات طيلة النهار في معسكر «باجوش» والذي أمضى فيه أجمل رحلة في حياته...

كشاب متفوق ومجتهد وينوي أن يكون جّراحاً في ذاك الوقت لم يكن لديه وقت لأن يعيش قصة حب أو حتى لأن يلاحظ اهتمام أيٍّ من زميلاته ...

وعلى نحو آخر فإنّ هذا الانشغال رسم له صورة شاب «تقيل» وهذا ما جعل أغلبهن يحلمن بأن يصلن لقلبه الذي لا يصل إليه أحد..

كان يأكل في هدوء وهو يراقب المرضى من حوله ويبتسم أحيانا لتصرفاتهم «المجانيني» ولكنه كان يخفي تلك الابتسامة خوفاّ من تحول أيٍّ منهم إلى الجنان غير الهادئ والذي إن ظهر قد تضيع إحدى عينيه خصوصاّ في حضور أدوات المائدة..

صوت غليظ سمعه بالقرب من أذنه وضايقه بشدة:

- الفول ناقص ملح يا «ليلى»

التفت ليجده عم «جودة» الحارس يلوم على «ليلى» المسئولة عن الطعام ...

«ليلى» .... تذكر الإسم واتسعت ابتسامته وظهرت «النغزتين» في خديه وقد رفع عينيه إلى أعلى وراحت عيناه ناحية اليمين وقد مال بوجهه قليلاً واضعاً سبابته أسفل ذقنه وهو يتذكر أيامه معها..

هي الفتاه التي استطاعت أن تصل إلى قلبه بكل سهولة فقد كانت رقتها كافية لجذب انتباه دفعة بأكملها وليس طالب متفوق مشغول فقط...

عاش معها أجمل سنة في حياته ولم يشك للحظة في أنها ستكون يوماً ما من نصيبه، فأهله أغنياء جدا وهو سيصبح طبيبا مشهورا كأبيه وهى «بنت ناس» وستكون طبيبة أيضا.. وبذلك ليس هناك ما يعوق هذه الزيجة إطلاقاً..

انتبه أنّه توقف عن الطعام وهم يقومون بحمل الأطباق إلى المطبخ بعد انتهاء وقت الإفطار وترك الخبز من يده، واتجه إلى الحديقة ليستكمل ذكرياته التي طالما عاش عليها ولم ينسها يوما واحدا...

ربما علاقته بها كانت راقية إلى أقصى حد، فهي علاقة لم تشبها شائبة على الإطلاق ولا خلاف واحد من يوم أن عرفها، ولا حتى تأخر أحدهما دقيقة واحدة عن موعد بينهما، بل إنه لم ينظر لها قط نظرة تشوبها شهوة ولم يغازلها قط غزلاً صريحاً ولم يهتم قطّ بها كأنثى بما تحتويه

الكلمة من مفاتن، بينما رآها دوما تلك الفتاة البريئة النقية التي يعشق طفولة عينيها وعذوبة ابتسامتها...

وبعد انتهاء سنة الإمتياز وتحضيره لرسالة الماجيستير في قسم الجراحة الذي تمناه وجد نفسه في قرية بعيدة في الصعيد لم يسمع عنها يوما ما ليكتب عليه أن يتم سنة التكليف هناك...

وابتعدا طويلا عن المقابلات نظراً لإبتعاد المسافات وكلم كل منهما أهله عن إتمام الخطوبة بعد انتهاء «التكليف» مباشرة..

وفي إجازة قصيرة جدا ذهب إلى القاهرة وكله شوق إلى ذلك اللقاء الدافئ بعد غياب دام أكثر من ثلاثة أشهر..

((أتته تلك السيدة الأربعينية (ليلى) بكوب الشاي الخاص به:

- اتفضل يا دكتور..

قالتها وقد شعر أنّها تغازله بابتسامة عريضة كما تفعل كل يوم.. غير أنّه كثيرا كان يشعر أنّها تضحك بصوت خافت بعد أن تعطيه الكوب وتستدير...))

حادث «ليلى» -حبيبته- في الهاتف وحدّدا موعدا في اليوم التالي، ثم تكلم مع أصدقائه وقرروا أن يتقابلوا في المقهى في نفس الليلة، جلس مع

أصدقائه وقد بدا عليهم شيء مريب، وزاغت أعينهم جميعًا عندما نظر إليهم، شخصيته كانت قوية ولكن ليس إلى حد أن يخشى أصدقاؤه أن يتكلموا أو يمزحوا معه..

سألهم في وضوحه المعتاد:

- في إيه يا جماعة؟ أنا حاسسكو عاوزين تقولوا حاجة؟

- لا لا لا لا مفيش يا بو على، هيكون في إيه يعنى - قالوها جميعهم عدا واحد هو «حازم» أقرب أصدقائه..

- «حازم» ... من فضلك تعالى عاوزك..

قام معه «حازم» إلى خارج المقهى وقد نكس وجهه إلى الأرض وسأله حسن في شدة وعنف أيضا :

- في إيه يا حازم؟؟؟

وبعد محاولات مضنية منه ليعرف ماذا يخفيه الجميع، لم ينطق «حازم» ببنت شفه...

فقط اكتفى بفتح جهاز المحمول الخاص به وقام بتشغيل ملف فيديو ثم ذهب عائدا إلى مقعده في المقهى..

جحظت عينا «حسن» وهو يشاهد ذلك المقطع وقد رآها فيه في مشهد لم يكن يتخيله وقد اختفت الكاميرا المصورة عن علمها ورجل يقبلها و يتلّمس مفاتنها وقد أغلقت عينيها مستمتعةً بذلك فيما أخفى الرجل ملامحه عن التصوير...

وقع الهاتف من يده قبل أن يسقط أرضا ويهرع كل من في المقهى لإفاقته...

لم يشعر بعدها بأي شيء ولم يدرِ كم من الوقت غاب عن الوعي وفي كل مرة يطوف بذكرياته يتوقف عند مشهد سقوطه لأنّه لا يتذكر ما حدث بعد ذلك وقرر بعد ذلك أنّه لن يحب إطلاقًا ولن يتزوج أبدًا.

شيئا واحدا أثار انتباهه ، «أي دولة هذه التي تقتل الأحلام بذلك الشكل؟؟»

يجتهد ويكدّ ويحضّر رسله ليصبح جراحًا ماهرًا عالميًا، وتلقيه الدولة بعد عذاب سنة التكليف بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية... ليعمل في وظيفة لا تمت لتخصصهأيّة صلة؟؟

قام وقد انتهى من كوب الشاي وكله حماس أن يغيّر هذا الوضع الذي لا يرضي أمانيه وطموحاته، يكفيه أنه خسر قلبه لكنه أبدًا لن يخسر طموحه وأمله وعلمه..

انطلق في ثبات إلى مكتب المدير السمج الذي طالما قال له بابتسامة ساخرة باهتة مثله ...

- يا دكتور حسن البلد هنا كده.. بتشغّل الناس في الأماكن الفاضية.. مش على حسب المؤهل.

دلف إلى مكتبه فلم يجده، فعادةً يتأخر المدير عن المستشفى في الصباح أول أيام الأسبوع وبالتالى عن الإفطار..

جلس منتظرًا قدومه وذهب ناحية «الكاسيت» وقام بتشغيله ليشدو العندليب.. «حليم»

أنا لا أذكر شيئًا عن حياتي الماضية - لي ذات غير أني لست أدري ما هي..

عاد مرة أخرى إلى الكرسي الوثير المواجه لمكتب المدير واسترخى فيه منصتًا إلى الأغنية، ومدّ يده يعبث بالأوراق والملفات على المكتب ليجد ملف المرضى بالمستشفى..

- تصفح الملف ليجد الصفحة الأولى لـ «عصام مجدي» ذلك الرجل الذي فقد عقله بعد خسارته أمواله كلها في البورصة..

- الثانية «طلعت ممدوح» المهندس الذي وجد زوجته على الفراش مع أخيه الأصغر..

- «محمود أمين» المحاسب الذي يعاني من الاكتئاب الشديد ومحاولات الانتحار المتكررة بعدما فشل في الزواج ووصل سنه للأربعين..

- قلب في صفحات الملف وهو يبتسم للقصص التي سمعها من المرضى آلاف المرات.

فهو يعرفهم جميعا ويعرف ما يعانون منه..

- صفحة وصفحه وصفحة وهو يتابع الصور ويتعجب لأشكالهم قبل دخول المستشفى ويقارنها بأشكالهم وملامحهم الجديدة بعد جلسات الكهرباء وأدوية علاج الأعصاب و--- و----- و----- و--- -

وعبد الحليم يشدو باغنيته الرائعة «لست أدري» وهو يقلب في الصفحات حتى وجد صفحة كتب عليها...

«حسن عبد الحميد الحوفي» طبيب بشري - فقد عقله نتيجة صدمة عصبية شديدة...

يعالج في المستشفى منذ ست سنوات ولا أمل في شفائه..

تمت بحمد الله ...

4- بالمقلوب....

رأى كل شيء بالمقلوب

وسارت به خيالاته في لحظات

شعر وكأنه يتحرك بين الذكريات بسرعة تفوق الطائرات

يتذكر كل شيء بالمقلوب

بعكس سير الأحداث

الأحدث فالأقدم

النتائج قبل الأسباب

وكأنه يفقد وعيه ببطء

يتذكر

تلك الفتاه الصغيرة الجميلة

التي طالما حلم بها في ليلة عرسها

كانت ضحكاتها تملأ أنحاء البيت بهجة وسرور

يراها جثة هامدة

ممزقة الملابس

بدون هوية للقاتل

أو القتلة....

تسيل دموعه...

وتدوي في أذنه كلمات الطبيب الشرعي

الذي أفاد أنها اغتصبت قبل أن تذبح..

يبكى ويبكى...

ويعود لما هو أبعد من ذلك..

ليلة راودت فكره طويلًا..

ضوء خافت..

ورائحة عطرة..

وامرأة جميلة.. فاتنة

طالما حلم بهذه الزوجة

يتذكر...

حينما أطلقت لعينيها العنان

وهى تبوح له بسّر

لم يعلمه إلا ثلاثة بعد رب العالمين

هو.. وهى.. وشخص آخر

كان سببًا..

في حرمانه من سعادة كل زوج

تتزايد الدموع

يشعر بدوار شديد

وصداع أشدّ

وتعود به الذكريات

أكثر وأكثر...

تتوقف عند أخته الوحيدة

التي رفضت كل العرسان

حتى شعرت أّمهما أن في الأمر شيء

وكانت الفاجعة...

ذلك الشاب الذي غادر البلاد في صمت

أغوى بها..

كل تلك الذكريات

لم تستغرق أكثر من لحظات

وهو يتذكر كل شيء..

وعاد به الزمن لما هو أبعد...

لسبب كل ذلك الشقاء

تلك البنت الخمرية..

تذكّر جمالها الهادئ

ملامحها العذبة

صوتها الرقيق

كل شيء كان أجمل ما يكون

إلا هو ... كان أسوأ ما يكون

لم يجد صعوبة للفت انتباهها

أحبّته.. بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ

وقال إنّه أحبّها..

ولم تكن عنده سوى بنت طيبة فاز بقلبها بسهولة

تذكر الليلة الربيعية..

التي استدرجها فيها إلى الهاوية..

كانت أجمل من كل مرة..

وحدث ما حدث..

برغم توسلاتها الرقيقة

ومحاولاتها الضعيفة لإبطال ما حدث

إلا أنه...

حدث..

بكت..

وبكت..

توسلت إليه عند أقدامه أن يتقدم لخطبتها

لكنه رفض

تذكر تلك العيون العسلية

وتلك الشفاه الرقيقة

وهى تقول

بكل ما تملك من قوة

ويدها إلى السماء

ربنا ينتقم منك

ربنا ينتقم منك

وكانت النتائج

أخته... زوجته... وأخيرًا ابنته الوحيدة..

ينهار من البكاء

وكل الذكريات تمّر في لحظات

تمر بسرعة بالغة ويشعر وكأنّه بدون رأسه

يسمع أصواًاتمبهمة ً مذعورةً طتحّ شيئ ًا فشيئ ًا

يرى وكأنّ أناًسا ينظرون إليه في دهشة..

أو رعب...

يراهم ينظرون للأعلى

لا يستطيع إدراك ما يحدث

حتى...

ارتطم بقوة

بالأسفلت..

جثة هامدة ...

تمت بحمد الله...

5- لقـــــاء...

وقف في حلّته السوداء الأنيقة..

وبدا كأنّه أهم الحضور..

الكل يذهب يسلّم عليه وهو لا يذهب لأحد..

حتى إنه يكاد لا ينطق...

كان ذلك اللقاء ما زال في ذاكرته ..

يذكره كلما أحسّ أنه لن يلقاها إلا بعد وقت طويل..

مّر أكثر من عشرة أعوام وهو لم يقابلها..

فقد شغله العمل والزواج والسفر وأولاده و.....و.....

لكنها –رغم ذلك- كانت دوًما تطمئن عليه..

ولكنه منذ أسبوع واحد قّرر أن يلتقي بها..

كالعهد القديم بينهما..

ذلك المطعم الراقي في الشارع الخلفي لحيّ هما القديم..

لم يكن يعلم ماذا سيحدث في اللقاء ..

ماذا سيقول بعد عشر سنوات..

لم يرها سوى على كاميرا حاسوبه الشخصي ..

فقط مرات قليلة في آخر سنة..

لكنه لملم شتات أفكاره وحادثها..

لم تصدق أذنيها..

لم تكن تعلم أي لغة تعبّر عن فرحتها العارمة..

طالما عاشت لأجله..

حتى بعدما أصبح لغيرها...

اتفقا على الميعاد..

تأنّقت طويلًا أمام المرآة..

ارتدت أجمل ثيابها..

وأعادت غسل وجهها عشرات المرات ..

بفعل الدموع التي كانت تنهمر من عينيها ..

كلما اتجهت نحو باب منزلها ..

من شدة الفرح..

وأخيرا رأته..

كأنّها تراه كل لحظة..

لم يغب عن عينيها قط..

ورآها كأنه يراها للمرة الأولى..

لم يكن يفكر بها يوماً كما كانت تفكر به..

لم يكترث قط لابتعادهما الذي لم ير لنفسه ذنباً فيه..

لكنه شعر بقشعريرة باردة تسرى بجسده عندما رآها..

لم يتمالك نفسه و هو يضّمها بين ذراعيه..

انهالت منهما الدموع وتناسيا أنهما في الطريق العام..

قاد السيارة بيد واحدة حيث إنها لم تترك يده الأخرى..

ولم يحاول هو إفلاتها..

وصلا للمطعم..

علقت يدها بيده اليمنى وباليد الأخرى احتضنت يده بقوة..

وكأنها تختبئ فيه من كل الذكريات الأليمة التي عاشتها في غيابه..

جلسا طويلا.. وتحدثا كثيرا..

لم تلمه قطّ أنه بات لغيرها..

لم تسأله لماذا لم يسأل عنها..

لم ترد أن تجعله يشعر أنه مدين لها بأيّ شيء..

فقط كانت تحلم بأن يتكرر هذا اللقاء..

أطعمته بيدها وهى تخاطبه بعينيها وتذكّره بالأيام التي كان لا يهنأ إلا عندما يأكل من يدها...

كانت كل نظراتها تقول له أنها تذوب في عشقه ذوبًا...

لم يفيقا من عالمهما إلا على ذلك النادل الذي اقترب منهما في بطء وأخبرهما أن المطعم سيغلق الأبواب..

الساعة أشارت للثانية صباحا..

ولم يشعرا بأي شيء..

تحطمت كل الذكريات الأليمة على باب المطعم وهما يدخلانه جنبا إلى جنب بعد سنوات طويلة منذ آخر لقاء..

أوصلها حتى بنايتها وذهب..

لم تدعه يذهب إلا بعد أن وعدها أنهما سيأتيان لنفس المطعم بعد أسبوع واحد .. ليعيدا اللقاء...

- كان واقفا في حزم وأناس كثيرون يصافحونه برفق..

حتى إنه كان لا يسمع تمتماتهم..

وهو غارق في ذكرى أجمل لقاء في عمره..

حتى أعطاه شاب أسمر يرتدى زى غير تقليدي وغير رسمي ككل الحاضرين..

أعطاه ورقة..

«أنا دفعت الحساب مقدما لأني كنت عارفة إني مش هكون موجودة بعد أسبوع»..

«تقدر تروح إنتا ومراتك وتقعدوا في نفس المكان»..

ثم انتبه لهذا الرجل الضخم وهو يصافحه ويقول بصوت أجشّ..

- الحاّجة «نجوى» والدتك كانت غالية علينا كلنا.

تمت بحمد الله ...

6- حبيبي.. فاتنا الطريق...

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل...

وهو يقود سيارته الفارهة..

ومّساحات الزجاج تتحرك في سرعة شديدة

كي تزيح مياه الأمطار التي تنهمر في غزارة

سكون شديد داخل السيارة..

ولا صوت سوى صوت المذياع الخافت جدا..

وأغنيّة أم كلثوم.. وكلماتها الرائعة

ياللي مليت بالحب حياتي أهدى حياتي إليك...

ابتسم ابتسامة هادئة وهو يتذكر تلك الكلمات..

عندما قرأها في رسالة منها..

كانت دائما ترسل له كلمات من أغاني..

بمجرد أن تستمع إلى كلمات في أغنية وتشعر به

كانت دائما تشركه في هذا الإحساس

سنوات طويلة في الغربة

لم يكن هناك سوى حلم واحد

بيت يجمعهما سويا وطفلة صغيرة يسميها باسم جدته «زينب»..

في كل شاطئ جلس به كتب اسمها على الرمال..

حتى في عمله..

كانت صورتها دائما على سطح المكتب بجهاز الحاسوب على مكتبه..

يجول ويجول في أيام الغربة الطويلة..

والتي باعدت بينهما المسافات كثيرا..

ولكنه دائما كان يشعر بها بجواره..

يراها أمامه.. يحادثها.. ويضحك معها..

طالما كان يراها في كل امرأه..

حتى إنه كان يراها في فنجان قهوته صباحًا

بابتسامتها البيضاء...

وهى تقول له صباح الخير يا حبيبي...

كم حلم بها.. كم تخيل أنّها تقول له أشياءً كثيرة..

في حين أنّها لم تكن تكلّمه..

ولم يكن يكلّمها..

إلا في أحلامه وربما أحلامها..

بعدما تقدم لخطبتها مرارًا..

ورفضه أبوها مرات ومرات..

وصارت كراهية شديدة بين أهله وأهلها

ومنعوها من أي وسيلة تستطيع بها التواصل معه..

وسافر.. سافر ليس إلّا لأنّ كل مكان في بلدته كان يذكره بها..

حتى الأمواج المتضاربة كانت تنطق باسمها..

لم يستطع أن يتحمل..

الذكريات من جهة..

وأهله من جهة أخرى..

وهم يلّحون في الضغط عليه بأن يتزوّج..

حتى لا يتركوا أيّ أملٍ بأن يعود إليها من جديد..

كان الأمر لهم بمثابة تحدٍ. وكرامة ..

كيف أنّ أهلها يرفضوا ابنهم..

وكيف أنهم لا يستطيعون إجباره على نسيانها..

وكان الأمر بالمثابة لأهلها تحدٍ أيضًا..

كيف أنّها أحبّت شخصًا لا نعرف له حسبًا ونسبًا..

شخصا دون مستواهم - كما قالوا..

لم يغفر له أنّه تقدّم لها..

ولم تغفر لها دموعها الحارّة..

ولم يغفر لها الحبّ الذي لم تشبه شائبة على الإطلاق..

لم يكن سوى المشاعر البريئة الطاهرة..

لم يكن غير إحساسهما الصادق..

ولكن لم يغفر لهما كل ذلك..

ولهذا سافر.. بعيدًا..

حيث لا يعرف أحدًا..

ولم يكن يعلم هل سيجد عملًا أم لا ..

أين سيعيش...

كيف سيأكل.. من أين سينفق على نفسه..

كيف وكيف وكيف...

لم يكن يعلم أي شيء

ولكنه سافر.. ولكم تمنى أن يموت..

كي يستريح من كل تلك الذكريات التي تحاصر خياله..

حتى أنّه ما عاد يكتب شعًرا إلّا عنها..

وكأنّه لم يكن يكتب حرفًا واحدًا قبل أن يعرفها..

لكنه وجد عملًا.. وعاش.. وأنفق..

وحاول أن ينساها..

ولكن دون جدوى..

سنوات وسنوات مرت..

كم تمنى أن يصل إليها..

أن يرى كل خيالاته حقيقة..

أن يسألها..

هل كانت فعلًا تقول ما تخيّل أنّها تقوله..

هل كانت حقًا تتذكره كل صباح..

كان يتمنى أن يعرف هل كان على حق عندما كذبهم جميعا..

قالوا له أنّها لا تفكر فيه على الإطلاق..

قالوا إنّها لا تنتظره كما ينتظرها..

قالوا وقالوا وقالوا...

ولكنه لم يصدّق سوى ذلك النبض في قلبه..

أنّها لن تكون لغيره..

وأنّها تنتظره..

وأنها تطالبهم كل يوم بأن تكون له...

تذكر كل شيء وهو يقود السيارة وسط برك الأمطار..

أوقفه اللّون الأحمر في الإشارة..

ضغط بقوة على مكابح السيارة..

وعندها..

قامت مفزوعة..

نظرت حولها..

وجدت أماكن بعيده تماما عن بيتهما..

قالت له برقة بالغة:

- حبيبي ... فاتنا الطريق..

نظر إليها متبسمًا..

والتفتت هي للخلف..وقالت:

- الحمد لله زينب لسه نايمة..

مدّت يدها نحو زر الصوت...

ورفعت صوت المذياع..

وقالت بابتسامه عريضة وقد استدارت تماما نحوه:

- فاكر الغنوة دي ؟

تنّهد تنهيدة طويلة وقد أغمض عينيه وهو يبتسم..

ثم وضع يده حول رقبتها وضمها نحوه..

أغمضت عينيها مثله..

ولم يشعرا بشيء..

حتى تنبهّا لأبواق السيارات..

تمت بحمد الله...

7- شاهد على العصر....

مثلها مثل أغلب فتيات الأرياف نشأت في قرية يعرف أفرادها بعضهم بعضاً عن ظهر قلب وتنتشر فيها الأخبار كانتشار الفساد في أعضاء مجلس الشعب ..

لم يُسمح لها بالخروج من القرية إلا بصحبة والدها أو أخيها الأكبر ولم يكن يروقها هذا إطلاقا، ما كانت تجد نفسها فيه هو جهاز التلفاز الذي يتحدث لغتين لا ثالث لهما - الأبيض والأسود - وبشغف شديد كانت تنتظر أفلام الكلاسيكيات وطالما حلمت بأن تكون نادية لطفي أو شادية أو حتى عبد السلام النابلسي لمجرد أن ترى حليم وجها لوجه وتتلمسه يديها شحما ولحًما..

عاشت ليلى رومانسية مفرطة بدون أن تجرب مرة واحده هذا الشعور لأن مجرد التفكير في ذلك يجعلها تنكمش داخل «الجلابية» المليئة بالألوان حتى تبدو وكأنها لون أصفر طغى على ألوان الجلابية من شدة الخوف..

مجرد التفكير في كلمة حب كان يرسم أمامها صورة أبيها وأخيها وهما يتفننان في تعذيبها بالنار والسياط وحلق شعرها وأشياء أخرى أكثر بشاعة ، فكانت تموت الفكرة لتظل مجرد جثة هامدة في أعمق طيات قلبها مع حليم وأفلامه وأغانيه و..... عبد السلام النابلسي..

سنوات طوال لم تحاول ولم تفكر أن تخرج من هذا الحرمان والكتمان الذي استسلمت له في هدوء متحاشيةً مشهد التعذيب الذي رسمته في خيالها من أحداث فيلم «إحنا بتوع الأوتوبيس»، حتى التحقت إحدى فتيات القرية بوظيفة في مدينة «العاشر من رمضان» بمرتب «كويس» كعاملة في مصنع أغذية

يأتي الأوتوبيس في الخامسة صباحا فتذهب فيه مع بنات من قرى أخرى مجاورة وتعود من المصنع في «المغربية» قبل الدنيا ما «تليلّ»..

وصفت أمها الوظيفة بتلك الكلمات أمام والد ليلى ليوافق على عملها في ظل الظروف المادية السيئة للأسرة بعد ما المسؤولين «سرطنوا» الخضار و«هرمنوا» الفاكهة و«ولّعوا» في القمح..

وما لم تتوقعه «ليلى» حدث، ووافق أبوها على أن تعمل في هذا المصنع..

وفي نفس الليلة رأت نفسها تحِبّ وتحبّ وتعشق وتغنى، رأت ورودا حمراء تملأ سقف غرفتها المدهونة «بالخوص»، واختفي تماما فيلم «إحنا بتوع الأوتوبيس» ليتألق فيلم «غرام الأسياد» و«حبيبي دائما» و«شارع الحب» و«لحن الوفاء» و..... «خالتي فرنسا».

ذهبت لأول مرة خارج القرية بدون أخيها أو أبيها، جلست في الأوتوبيس صامتة تنظر من النافذة وقد أمسكت طرف الستارة بإصبعين ورفعتها قليلا لترى الشوارع وكأنها تراها لأول مرة.

لمسة على كتفها جعلتها تلتفت في حدة لتجد الفتاة من قريتها تجلس بجوارها وتقول لها بشفافية شديدة:

- شوفي يا «لولو» أنا هقولك على حاجة عشان تفهمي الدنيا ماشية إزاي، اللي بيحصل برة العزبة محدش فيها يعرف أي حاجة عنه، يعنى وانتى راجعة البيت كل يوم تنسى أي حاجة حصلت في المصنع، وإحنا

كلنا بنات من سن بعض وقلبنا على بعض، وأي واحدة هتقول كلمة على واحدة مننا كلنا هنطلعها كدابة وهنجيب الكلام عليها هي ، وبدون حرف واحد أومأت برأسها متفهمة واستدارت للنافذة مرة أخرى.

وفي أول أيامها في المصنع حارت عيناها العسليتان يمينا ويسارا بحثا عن «حليم» الذي طالما حلمت به، عن «قيس» الذي أحبت شعره لمجرد أن اسمها «ليلى» برغم أنها لم تفهم قط مفردات قصائده..

مّر يوم وأسبوع وشهر ولم تجد ذلك الفارس، حتى جاء «أحمد» المهندس الجديد في المصنع، شاب أنيق، وسيم، طويل، تمًاما كما تكتب مراسلات عمود «تبحث عن زوج»في جريدة الأهرام قديمً ا وكما يكتبون حاليا في مواقع الزواج..

مّر أحمد بعنبر التعبئة الذي تعمل به ليلى ومرت معه مشاهد رومانسية كثيرة في عينيها وصرخت جوارحها بقوة وبدون أن تنطق حرفا واحدا «هوه ده حليم»..

براءتها الشديدة في تصرفاتها وحتى في ملامح وجهها جعلت أحدًا لا يعطى بالًا لما تفعله أو ما تقوله فالجميع يفترض حسن نيتها المفرطة بل إن الغالبية اعتقدوا بأن طيبتها قد جاوزت الحد إلى السذاجة..

كان ذلك مفيدا جدا لها فكانت تنعم بأنها غير مراقبة ولا يوجد بالمصنع أي شخص «عينه عليها»..

وكلما مر «أحمد» تابعته بعينيها من وقت دخوله إلى وقت خروجه وكأنها تسجل له «فيديو» لتحفظه في خيالها وتشاهده مرات أخرى كثيرة قبل النوم على الحائط المواجه لسريرها ،،تتذكّر لكنته «الإسكندراني» وهو يكلّم الفتيات.. «عاوزين نتعلموا نشتغلوا عالمكن صح»..

تغمض عينيها وتحدثه ويحدثها وتضحك ويضحك ثم تودعه وتنام..

وفى يوم قررت الشركة عمل رحلة وإعطاء العمال والعاملات إجازة في هذا اليوم واتفقت الفتيات أن يذهبن للمصنع وكأنه يوم عادى وألا تخبر إحداهن أهلها بشان الرحلة والإجازة..

جلست هي في ظل شجرة في الحديقة الواسعة وقد ذهب الجميع للمطعم، فيما كانت حزينة لأنه لم يأت ولن تراه في هذا اليوم الذي تأنقت فيه طويلا أمام مرآة الحمام في المصنع وأخفت ملابس «العيد اللي فات» في حقيبتها وبدلتها في الحمام أيضا، بل إنها ولأول مرة قد وضعت «أحمر شفايف» من إحدى العاملات معها، حتى سمعت وسط كل هذا الهدوء صوتًا..

- إزيك يا ليلى؟ قاعدة لوحدك ليه؟

استدارت رقبتها بسرعة لتجده أمامها واقفًا، مبتسمًا، وفي قمة أناقته المعهودة..

- أ أأأ أأأ أصلهم راحوا، راحوا علشان، هما مشيوا من هنا كده.

- أأأأأأ إيه بس يا بنتي بتهتهي ليه كده؟ مالك؟

حاولت بشدّة ان تقول أي شيء لكنها لم تستطع، فقط استطاعت أن تشير له أن يجلس، قطع هو كل هذا الارتباك وقال لها في وضوح.

- أنا عارف كل حاجة..

اتسعت حدقتا عينيها في قوة وقالت بمنتهى العفوية «إنهار منيّل، يا لهو بالي، عارف؟؟؟؟»

ابتسم مجددا وحّرك رأسه إيجابًا مرات كثيرة متتالية وقد رفع حاجبيه للأعلى وانكمشت طيات رقيقة في جبهته.. ثم تابع..

- أيوه يا ليلى عارف كل حاجة وواخد بالي منك من أوّل يوم ليا في المصنع..

ألوان كثيرة ارتسمت على وجهها وكأنها لوحة رسام مجنون قد ملأ اللوحة بفن سري لا يفهمه غيره، وهمّت بالوقوف والانصراف، إلا انه أمسك يدها في رفق فشعرت بقشعريرة كهربائية باردة تسرى بجسدها كله

وسحبت يدها برفق ولم تستطع الوقوف مرة أخرى وقد أغمضت عينيها واستنشقت هواءً كثيرا مرة واحدة في تنهيدة طويلة.

استمعت له بإنصات وهو يروى لها ملاحظاته لمتابعتها له ويقسم لها بأنّه كان يحدثها مساء كل يوم قبل أن ينام..

ومدّ يده مرة أخرى فأمسك يدها ولكن دون أن تسحبها هذه المرة..

جلسا طوال اليوم وقد غابا عن أنظار الجميع ولم يشعرا بالوقت حتى دقت ساعة يده بالرابعة عصرا فقامت مذعورة وانطلقت ناحية البوابة وهى ملتفتة ناحيته وتجرى في الاتجاه الآخر وقالت بيدها «مع السلامة»

نادى عليها وأعطاها ورقة معطّره.. قال لها أنّه كتبها من أجلها .. والحقيقة أنّه سرقها من شاعر مغمور اسمه (جاسر الأنور)..

قرأتها بتمّعن فى أوتوبيس الشركة فى رحلة العوده لقريتها.. وبرغم أنّها حفظتها عن ظهر قلب .. إلّا أنّها كانت تحتفظ بها فى طيّات ملابسها.. وتقرأها كلّما سنحت الظروف بذلك..

يا من هَوى قلبهُ كلَّ انشغالىِ
يا من سهَّرت عيناه قلبى كلَّ اللّيالىِ

أما طال الفراق.. وحان الوصالِ
أما جاء بـعْدُ يومُ تحقيقِ الآمالِ
أو آن يومٌ طالما كان انشغالىِ
لَيَدُقّ القلب يتمنى .. ويثور بالىِ
يصيح قلبى... أريدُ رؤيةَ الغالىِ
ويتوه فكرى كل يوم يسوءُ حالىِ
ويسيلُ دمَع عينى فى كلّ الليالىِ
ويطولُ ليلِى فى البعادِ ليَزيدَ أحمالىِ
قد طال صبرى وفاق صبر الجِمالِ
أيكون ذنبى حبِّى هذا الجمالِ
أم أنَّ خَطَئِى أنكِّ أنتِ إبتهالىِ
أريدُ رؤياكى فأجيبى سؤُالىِ
يريد قلبى خطابك هيَّا تعالىِ
تعالى إليهِ أرجوكى..إنَّه خالىِ
تعالى إلى حزنى..واحللى أغلالى
أنقذينى.. إنَّ موجَ البُعدِ عالى
وخذينى.. من ليَالىِّ الطُوالِ
أعيدى حبّنا فى النّهرِ شَلاَّلِ

واجعلى عشقنا صرحاً فوق الجبالِ
اطفئى نار قلبى التى فى إشتعالِ
واجعلى عودة البُعدِ من بينِ المحالِ
فقد طال الفراقُ وحانَ الوصالِ

أيّام كثيرة مرت وهى تتصل به من موبايل بجوار المصنع في وقت الراحة، وتبتسم له كلما مّر بالعنبر وتصطنع أي حجّه لتذهب له في مكتبه وتهمس له وظهرها للزجاج «وحشتني»..

حتى إنها لم تحتمل إلحاح صديقتها المقربة عن سّر تغيّرها و ابتسامها دوماً وأسئلتها المستمرة المكشوفة جداً من عينة «هوا لو مثلا في واحدة بتحب واحد والواحد ده يعنى مش بيعرف يقابلها والواحدة دي مش بإديها إنّها تقاب...»

وفي يوم.. عرضت عليها صديقتها فكرة بأن تذهب وتقابله خارج المصنع وتغطى هي غيابها، وبعد تردد طويل أخبرته ووافق على الفور...

تقابلا في محطة الأوتوبيس وسألها:

- تحبي تروحي فين؟

أجابت بتوتر وهى تلتفت يميناً ويساراً:

- أي حتّة..

ركبا التاكسي وتوجها إلى «المتحف المصري» وبمجرد دخولهما هناك استقبلتهما مع كثيرين فتاة أنيقة تحمل زيّ شركة سياحية بابتسامة عريضة وعرضت عليهما جولة مجانية شرحت لهما فيها كل ما تعرفه عن كل تمثال أو أثر موجود في المتحف..

حتى اقتربت من غرفة «توت عنخ آمون» فظلّت خارجها وأخبرت الجميع المعلومات من خارج الغرفة ثم أشارت لهم بالدخول إن أرادوا.

سألت ليلى:

- ليه يعنى الأوضة دي بالذّات مدخلتش معانا فيها؟؟؟

- عاوزة تعرفي ليه؟ تعالي..

سارت بجواره وقد أمسك يدها في إحكام وتركتها هي كذلك منذ لحظة خروجهما من التاكسي، دخلا الغرفة ليجداها بضوء خافت جدا وقد جلس بها الكثيرون..

كل رجل مع امرأة وكل شاب مع فتاة وقد اندمجت أنفاسهم وهم يمثّلون المشهد الأخير من الأفلام التي تعرفها هي جيدًا قبل أن تظهر كلمة «النهاية»..

همّت بالخروج ولكن ضغطةً منه على يدها جعلتها تلتفت له لتسأله عما يريد، نظر في عينيها مباشرة ثم رفع يده اليسرى أسفل ذقنها ورفعها ببطء وهو يسألها:

- بتحبيني؟؟

أشارت برأسها إيجاباً وهى تنظر في عينيه السمراوتين، واقترب هو أكثر، ورفع رأسها أكثر..

ثم بدأ في «العصر» ...

تمت بحمد الله...

8- ضد التيار...

* «نهار داخلي.. 1991».. هندسة الإسكندرية.

- بحريّة يا «بيبو» ... أنا شوفتلك التنسيق.

- آه يا حوستي السودا يانا يامّا.. ده قسم ناشف أوي يا عم.

- انتا يعني بتعتق يا عم «بيبو»؟؟ منتا هتقضيها حضور في القسم اللي يعجبك..

- لله الأمر من قبل ومن بعد..

قالها على طريقة المسلسلات الدينية قبل أن يضحك بعنف هو وصديقه أحمد أبو ريّه»..

«بيبو».. هو الأخ الأصغر.. دلوعة البيت.. لم يشعر قط بضيق من هذا الوصف.. على العكس كان يروقه تمامًا.. خاصّة من أخته الكبرى .. وهي تهندم له غرفته «الزريبة» كما تطلق عليها..

*أول محاضرة في القسم..

- أهلا بيكو يا باشمهندسين.. وأهلا بيكي يا باشمهندسة في قسم الهندسة البحريّة.. القسم هنا من الأقسام القليله جدا في كل جامعة اللي بيدّرس عل.....

-العب ياريّس.. واحده في القسم أهو..

- حظّك يا بن المحظوظة.. بس شكلها مقفلّة وواخدة الموضوع جدّ..

- أنا بتاع المهمات الصعبة.. اتقل تاخد حاجة نضيفة..

قاطعهما صوت الدكتور في حدّه:

- الاتنين اللى بيضحكوا ورا.. لو سمحتوا اتفضلوا اضحكوا في مكان تاني..

قام الاثنان تتابعهما أعين أكثر من مائتي زميل.. وزميلة واحدة.. وخرجا من المدرج..

ولكي لا يضيع وقتا.. ذهب مباشرة إلى كشف أسماء الدفعة.. ليبحث عن اسمها.. البنت الوحيدة في الدفعة.. «بسمة توفيق محمد أيوب»..

- يا دي النيلة السودا.. دي طلعت بنت دكتور «توفيق أيوب».. رئيس القسم..

- ولا يهمّني.. يا بني بص علي أرقام السكاشن.. دي معايا في نفس السكشن يا بوب.. دي مكتوبالى وش..

«بيبو».. كان ذلك الشاب الذي يخلق جواً مختلفا أينما وجد.. فهو ذكي بالفطرة.. خفيف الدم.. ويهتم بمظهره لأقصى حد..

منذ سنتين فقط أخذه أخوه الأكبر «عمرو» معه في رحلة لمعالم القاهرة.. وبعد الغداء.. بحث عنه «عمرو» طويلا.. ظانًّا أنه يجلس وحيدا في رحلة لا يعرف فيها أحدا سواه..

فوجده ذلك (الشيء) الذي يقف الجميع حوله يضحكون في انفعال.. عندما سأل صديقه:

- هي الرحلة كلها ملمومة على إيه و بيضحكوا كده؟؟

- على أخوك يا فاشل.. ده أخوك طلع برقبتك..

□□□

أسبوع واحد فقط كان كافيا جدا لأن يتعرف «حبيب» أو «بيبو».. على «بسمة»..

على غير عادته.. أصبح منتظما في المحاضرات.. منضبطا في الدراسة.. بل إنه دخل المكتبة لأول مرة.. معها..

لم يصدّق أحد أبدًا أنّ «حبيب» يحصل على تقدير «جيد جدا» في الترم الأول.. ولكن هذا ماحدث..

□□□

خطوات بطيئة بعض الشيء على شاطئ كليوباترا.. الجو بارد بعض الشيء.. وإضاءة السيارات تلمع على الأسفلت مع مياه الأمطار ..

- الآيس كريم جامد.. جدًا..

التفتت له في دهشة..

- ايه جامد جدًا دي؟؟ بتجيب الكلام ده منين مش عارفه؟

-أيّ ووه عليكي بقى لما تمسكي عالواحدة كده.. وعلى فكرة مش لايق عليكي خالص ..

رفعت حاجبا وضمت شفتيها على ملعقة الآيس كريم قبل أن تنظر في الكوب مجددا..

- إني عاملة من بنها يعني؟؟

- مانتي حلوة أهو.. أومال ايه بقى..

نظرت له في تحدٍ من نوع خاص.. وقالت بلهجة تأنيب..

- ما هو انتا لو بس كنت تبصّ عالبنش اللي بتقعد عليه كل يوم في السكشن..

ردّ لها نفس اللهجة وهو ينظر إلى كوبه هو الآخر..

- ماهو انتي لو كنتي ترجعي تبصى عالبنش بتاعي بعد ماتكتبيلي تحتيه..

التفتت له مجدداً .. وأمالت رأسها لليمين قليلا متفهّمة..

- يعني إنتا قريت كلامي؟؟ يابن اللذين..

- يا بيبي أنا كنت عاوزك تقولي اللي انتي عاوزاه في وشي كده.. مش بنشات وكلام من ده..

- والله انتا غلس.. عشان أنا كل ده فاكرة انك معرفت....

قاطعها قبل أن تكمل.. واستدار ليكون أمامها مباشرة.. وأمسك يديها للمرة الأولى..

- بحبك.. والله العظيم ما كنت اعرف إن أنا من الناس اللي ممكن يحبوا بجد.. بس باين إنى طلعت واخد من اسمي حاجة..

اتسعت ابتسامتها وقد احمّر وجهها وهي تنظر إلى الأرض..

- بردو غلس.. هه

□□□

مّر الترم الثاني.. وبقي حبهما سرًّا لا يعمله إلّا هما.. على الرغم من تكهنات الجميع.. وأحاديث الشباب التي لا تنتهي في المدينة الجامعية في ساعات الثرثرة الليلية.. التي كان «بيبو» و«بسمة» بالتأكيد أهم أبطال حكاياتها..

بعد عامين.. كان منطقيا أن تسمح لوالدتها أن تفاتح والدها «الدكتور توفيق» في موضوع «بيبو».. الذي تقدّم لخطبتها رسميًّا بعد ذلك.. وتم رفضه أكثر من مّره..

الدكتور «توفيق» رئيس قسم الهندسة البحريّة.. وصاحب عدة يخوت وشريك في مصنع تصليح سفن.. أكثر من مجّرد رجل غني.. فهو أبّ حنون.. وصديق جدع.. عالم.. محترم لأقصى حدّ..

ردّ فعل الدكتور «توفيق» لم يكن متوقعا بالمّرة..

- يعني عيّل أّنها ف السّن. ويا دوب عيلته كويس إنهم عايشين.. وعاوز يلعب ببنتي كورة؟ أنا هوريه..

حاولت «بسمة» أن تقنعه أنّ الأمر ليس كما يراه.. ولكن دون جدوى.. كونه رئيس القسم جعل من السهل عليه أن يفّرق بينهما ويضع بينهما سنة دراسية كاملة خصوصا بعض انقطاع «بيبو» عن أغلب المحاضرات والسكاشن بعد رفضه.. فاستطاع أن يجعل «بيبو» يعيد السنة الثالثة.. بعدما رسب في أربع مواد..

استخدم الدكتور سلطته مرة أخرى عندما جعل جميع محاضرات وسكاشن السنة الثالثة بالتبادل مع السنة الرابعة وخصص لكل فرقة منهما ثلاثة أيام في الأسبوع.. حتى يستطيع أن يمنع لقاء «بسمة» و«بيبو» تماما..

- حضرتك أنا بعدت عنها ومش هكلمها تاني.. بس مش عاوز أسقط تاني.. أمسك الدكتور بالبايب.. ونفث دخانه ببطء وهو ينظر من تحت نظارته الطبية الأنيقة..

- يا باشمهندس.. المواضيع الشخصية مكانها مش مكتبي ومع ذلك الموضوع بسيط.. انتا اتقدمت وأنا رفضت والموضوع انتهى.. ده أولا.. ثانيا.. أنا ليش دخل في نتيجتك.. دول دكاترة محترمين همّا اللي بيصحّوا مش أنا لوحدي..

ثالثًا بقي.. أنا عارف كويس إنّك مش هتكلمها تاني.. لأن هي اللي مش عاوزاك مش أنا اللي مانعها عنك..

واتفضل بقي عشان مشغول شوية لو سمحت..

نظرة من عيني «بيبو» قالت كل شيء.. قالت بكل أسى.. أن الأمر انتهى..

□□□

لم يصدّق أصابعه عندما لامست نقوشًا أسفل لوحة الرسم الخاصة به في صالة رسم الهندسة البحريّة..

كتبت له جملة واحدة فقط.. «هستناك العمر كله»..

هذه المرة لم يقو على الرد.. لم يكن يعلم ما هي نهاية الانتظار.. وكيف سيكتب لهما القدر أن يكونا سويًّا مجددا.. فالأب.. حتمًا.. لن يتغيّر..

انتهت سنته الأخيرة في الكليّة.. وأصبح يحمل شهادة بكالوريوس الهندسة البحرية.. بتقدير جيّد..

أربعة أعوام كاملة مّرت وهو يسافر في بحار الدنيا.. يزور بلدان لم يكن يعلم بوجودها على الخريطة..أوقات طويلة ينظر في الهاتف المحمول ويبتسم في أسى.. كم كان سيحدث فرقاً هذا الموبايل لو كان موجودا وقتما كانا سويًّا.. أوقات طويلة يقضيها متأملًا في صفحات المياه الزرقاء على ظهر سفينة.. كثيراّ مايخرج من جيبه ورقه مطويّه.. كتبها فى إحدى ليالي الشتاء القارس حيث أقنع نفسه -عنوةً - أنّه لازال هنالك أمل..

" مش هنضيع.. ده بعد البرد اللى يّموت بييجى ربيع
مش هنضيع.. بعد الأّم ما تتألّم بييجى رضيع
مش هنضيع.. بعد الكون ما يضلّم بيبقى بديع
مش هنضيع.. لأن دعانا بيتكلم ولينا رب سميع

******

ومهما الدنيا هتبعدنا... اكيد فيوم راجعين
ومهما الدمع يغرقنا... لحلمنا رايحين
لو كل الناس تفرقنا... برضه مضمومين
وان حاولو يبيعوا اللى ما بينا... احنا مش بايعيين

******

ان كنتى حاسّانى لوحدك... أنا بيكى كل الناس
لو ليلة غاب قلبى عنك... يتنفس الإحساس
لو فاكرة ممكن اسيب قلبك... أبقى متّ خلاص
وإن كانت الدنيا ضدّك... روحى ليكى حماس

******

وإزاى هييجى يوم نشفى... لو مافينا جراح
وإزاى فى حلم يرجعنا... لو مكانش راح
ده لو ماكانت فى ضلمة... مكانش فى صباح
ولو مفيش ناس ظالمة... إزاى يقولوا سماح

******

إن كنتى مكتوبة ليّا... هتكونى مهما يكون
يقولولى مش حاسّه بيّا... أنا لسه مش مجنون
بتقولى تعمل ايه ليّا... أتحدى كل الكون
ومهما يعزّا فيّا... لعنيكى كلّه يهون

******

لو فضلو يموّتوا قلبى... هتكونى انتى الحياه
ولو انتى أبعد شىء عنّى... هعيش عشان ألقاه
ومهما ياخدوكى منّى... قلبى حاسّك معاه

ده الحلم اللى بيجرى فدّمى...كلام فى يوم قلناه"

□□□

كان الأمر يستوجب خطّة محكمة للتحدث إليها هاتفيًا.. قبل أن يستحيل الأمر تمامًا بعد معرفة أبيها بأمرهما...

تلمع قطرة في عينيه وهو يتذكر تلك المكالمة في الذكرى الأولى لأول يوم حب بينهما وجها لوجه.. يوم الآيس كريم - كما أسموه- عندما نجح في إقناع صديقتها أن تضع لها هديته في دولاب غرفتها دون أن تعلم «بسمة» ومن حسن حظّه لم تعلم «بسمة» أن «حنان» دخلت غرفتها وقت أن كانت تعدّ الشاي لها في المطبخ..

يومها اتصلت أخته قبل أن تعطيه السّماعة بعد أن تأكدت أن «بسمة» على الخط..كان حوارًا لم ينسه يوما..

- انتي فين؟..

- في البيت هكون فين يعني..

- يا سلام؟؟ طب ما هو طبعا في البيت.. اومال بكلمك أزاي أنا.. فين في البيت؟؟

- في بلكونة أوضتي.. اشمعني؟

- طيب أدخلى جوه الأوضة..

- ليه يعني؟؟

- ادخلى بس..

- دخلت ... ايه الحكاية بقي..

- افتحي الدولاب..

- دولاب ايه؟

- هي مش اوضتك دي فيها دولاب؟ افتحيه..

- ليه طيب؟؟

- افتحي الدولاااااااااااااااااب..

- حاضر.. حاضر..

- قدامك تونيك بيج..

- هه.. «قالتها في الهاتف وكأنه شعر أنه رآها حينها وهي تنظر حولها مرعوبة»..

- في الجيب.. في هديه ليكي.. كل سنة وانتي معايا..

انقطع صوتها من الصدمة وهو يتاكد من وجودها على الخط..

- آلو.. آلووو

- إزاى؟؟

- إزاى ايه؟؟

- وصلت هنا إزاي؟؟

- مش هتقولى حاجة تانية طيب؟؟

- بحبك أوي والله..

كان أجمل انتصار حققه على صعوبة الوصول إليها وفعل كل شيء ليخلق هذا الموقف الذي سيظّل أبدا في ذاكرتيهما..

كل هذا حدث.. ولكنها لم تستطع أن تكون معه في النهاية.. لأنه.. نصيب..

في كل مدينة ساحلية في الدنيا أصبح له فتاة.. أو اثنان وربما أكثر..

يقضي معهن السهرة في أحد المطاعم أو المسارح.. وأحيانا البارات..

قبل أن يعود إلى السفينة في صباح اليوم التالى..

□□□

- وبعدين يا «بيبو»؟؟ عاوزين نفرح بقى..

- يا «نجوى» ياحبيبتي.. 100 مرة أقولك إنتي أختي الصغيره.. مش أمي..

- هتفضل تهّزر كده وتتسرمح في كل بلد شوية لحد ما تلاقى عمرك عدّى..وأشوفك أجازة كل حين ومين.. منّه للّه اللى مايتسّمى هوا اللى طلّعلك الفيزا وسّفرك في الأّول..

- يا بنتي.. أنا مش وش جواز.. أنا كده فّل أوي.. وبعدين الراجل ساعدني أسافر والحمد لله لقيت شغل حلو والحالة زيّ الفل أهو..

- يعني مفيش فايدة فيك بردو.. زهقت زنّ عليك ومفيش منك رجا.. إنتا فيك حاجة يا وله؟؟؟

انفجر في الضحك.. وانقضّت هي عليه بالوسادة تضربه على وجهه وتضحك هي الأخرى..

- لا ياختي أنا عاوز أكّمل تعليمي الأول..

- شكلك عبيط زي أخوك «عمرو» هتفضل متعلّق بالبنت إيّاها..

- طب خلّي السيرة دي على جنب بس عشان إنتي عارفة يعني ايه حبّ كويس أوي..

نظرت للأرض في تأثّر.. قبل أن تنادي على الخادمة..

- يا «ليلى».. تشرب ايه يا حبيبي؟

أشار لها إشارة بينهما وهو يداعب طفلها ففهمتها وابتسمت.. قبل أن تدخل الخادمة الغرفة..

- نعمين يا ست نجوى..

- اعمليلنا اتنين كاكاو سخن..

ثم تابعت كلامها له:

- طب انتا يعني عاوز تعمل ماستر وكده..

- ماستر مين دلوقتي.. مين «ليلى» دي.. قّزأوي..

- يابني إنتا هتبصّ للخدامة كمان؟ يخرب بيت شيطانك.. دي يا سيدي شغالة عند المحروق جوزي في المستشفى وبيجيبها تساعدني في البيت. .ارتحت؟ قولي بقى عاوز تكّمل تعليمك بجدّ؟

- بفكّر في الموضوع والله.. تفتكري ممكن أعمل ايه؟

- ممكن نبعت دلوقتي ع النت لجامعات أجنبية ونشوف هيرّدوا يقولوا ايه..

- قشطة يا نوجه.. يالّا.. أهو نستفيد منك بحاجة..

فتحت اللاب توب الخاص بها وهو تقول له في سخرية..

- طول عمري مغرقاك جمايل أصلًا.. ودلوقتي هعملك إيميل كمان ابسط يا عم الباشمهندز..

- متشكرين يا بطيخة يا أّم الجمايل.. أومال لو بفلوس كنتي عملتي ايه..

- كنت هعملهولك بردو ياخفيف ... هوا احنا شوية في البلد..

جلس بجوارها وهو يشرب الكاكاو.. وفتحت أمامه مواقع بعض الجامعات الأجنبية..

ثم أرسلت إيميلات لهذه الجامعات كما أملاها.. طلبا للحصول على الماجيستير.. واستفسرت أيضا عن التكاليف المطلوبة..

وأرفق صورة شهادة تخرجه بالإنجليزية مع تلك الإيميلات.

□□□

مّر يومان قبل أن تهاتفه نجوى ليعود من على القهوة مبكًرا..

فتحت الإيميل أمامه وهي تشترط عليه مكافأة مجزية للمفاجأة التي تنتظره..

نظر لها في تعّجب:

- هوا أي استغلال والسلام يعني؟؟ أكيد جامعة منهم قبلت وبعتت التكاليف المطلوبة.. مش كيميا هيّ..

- يا بني.. اتقل تاخد حاجة نضيفة..

- فتحت الايميل ومن ثمّ ردّ من جامعه ليفربول.. الذي كان - للغرابة- باللغة العربية..

« السيد المهندس.. حبيب البنداري..

لا مانع لدينا من قبولك لعمل رسالة الماجيستير في الجامعة..

التكلفة الإجمالية 15 ألف جنيه إسترليني للسنة..

وحشتني أوي يا بيبو..

د. بسمة توفيق.. »

تجّمدت ملامحه تمامًا وهي يحملق في الشاشة غير مصدّق ما يحدث:

- مش قلتلك مفاجأة؟؟ عاوزة مكافأة فظيعة بقي..

لم تكمل جملتها إلا وهو يحملها من على الأرض مطّوقًا إياها بيديه.. ودار بها دورات عديدة وهي تضحك وتحاول إلتقاط أنفاسها..

- الحمد لله ياااااااااااااااااااارب.. أنا فرحان أوييييييييي..

أنزلها على الأرض وهو لازال يحتضنها..

- ربنا يفّرح قلبك يا حبيبي.. انتا تستاهل كل خير يابيبو..

جلس على الكرسي مرة أخرى وأرسل رده عليها..

«حبيبة عمري.. بسمة.. وحشتيني أوي أوي.. ده رقمي كلميني»..

اتصلت به بعدها بلحظات.. لحظات انتظراها طويلًا.. طويلًا جدًا..

اتفقا على كّل شيء في غضون أسبوع واحد..

□□□

بعد عشرة أيام كانت في استقباله في مطار ليفربول..

برغم طول الغياب والابتعاد.. لم يفكرا في أّي شيء إلا وقد تعانقا طويلا والدموع تنهمر منهما بدون كلمة واحدة..

في سيارتها.. اتجها إلى السكن الجامعي الذي أعدّته له.. وبينما كان يتأّمل ملامحها طويلًا.. سألته..

- إيه الأخبار بقي.. إحكيلي.. إزي إخواتك عاملين ايه.. ومامتك..

- أمي تعيشي انتي.. ماتت من سنتين.. وأخويا «عمرو» بعد ما اتجوز وعاش في دمنهور شوية.. ساب مراته عشان مشكلة في الخلفة ومش عاوز يتجوز تاني.. وشغال في الإمارات..

- الله يرحم مامتك يارب.. طيب ونجوى عاملة ايه؟

- نجوي يا ستي اتجوزت واحد غني بقى من علية القوم.. وكان حصلها صدمة من سنة كده بس الحمد لله علّت منها..

- صدمة ايه كفي الله الشّر..

- جوزها عمل حادثة بعربيته وخبط واحد موته وكانت راكبة معاه هي و«عمرو».. ولسوء الحظ.. يطلع اللي مات ده.. هوا الواد اللى كانت بتحبّه زمان..

- يا نهار.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أكيد تعبت أوي..

- سنة كاملة.. وهي من مصحّة نفسية لمصحة تانية.. بس الحمد لله كويسة دلوقتي.. وعندها ابن زي القمر اسمه «حبيب» على اسمي..

- أيوه يا عم ما هي طول عمرها حبيبتك.. طب و«أحمد» صاحبك الأنتيم ومرسال الغرام أخباره ايه؟

-ياه لسه فاكراه !! أهو.. خلّص الكليّة وملقاش شغل في البحر فراح اشتغل ميكانيكي في مصنع في العاشر..

- واتجّوز؟؟

- إتجوز بس حصلتله مشاكل جامدة.. واتوفي.. ربنا يرحمه.. وقع من البلكونة..

- يا الله.. قالتها وأتبعتها بتنهيده حارّة.. قبل أن تكمل..

ايه يا عم انتا أخبارك دي.. عامل زي هنيدي في عسكر في المعسكر كده ليه؟

ابتسم لخفّة دمّها وحاول تغيير الحوار..

- مش انتي اللّي سألتي يا دكتورة؟ والله وبقيتي دكتورة يا «بسمة» وفي ليفربول كمان؟

- شفت بقى.. قلت مفيش حجّة أحسن من كده عشان أقدر أستناك..

لمعت دمعة في عينه من الفرح.. وقال لها وهو يغالب نفسه..

دنا حبيت ليفربول دي أوي والله.. دنا بفكّر لما نخلّف بنت نسمّيها ليفربول..

- انتا هتزعلني منّك ليه بقى.. بنتنا هيبقى اسمها «زينب».. ومتقلبهاش تراجيدي عشان خاطري.. أنا ما صدّقت..

-والله بحبك.. وما بطلتش أحبّك ثانية واحدة..

- بموت فيك يا مجنون انتا.. مقولتليش بقي ايه اللّوحة اللى انتا جايبها معاك من مصر دي؟؟ راسمني ولا ايه؟؟

أزال الغلاف لتجدها لوحة رسم هندسي خشبية قديمة.. أدارها ليريها اللوحه من الخلف.. وقد نُحِتت عليها نقوش جملة طالما كانت أمامه ..

«هستناك العمر كله»

تمت بحمد الله...

9- الحبيبان...

لم تكن ترى أبدًا أنّها قدّمت كلّ ما لديها في زواجها الأوّل.. وبرّرت فشل الزواج - على عكس العادة - بسببها هي ولم تلق عبء الفشل على الظروف أو النصيب أو الطليق..

تقدّم للزواج من «موني» رجل أعمال أرمل كبير في السن - نوعا ما- فضلا عن كونه أصلع وبكرش -كما كانت تقول والدتها- ولكن كل ذلك لم يمنعها من الموافقة عليه.. لغرض واحد فقط.. الخلفة..

شرطها الوحيد كان ألّا تعيش مع أبناؤه من زوجته الأولى.. وكان ردّه بالموافقة مؤكدًا أن الأبناء سيعيشون مع عمّتهم.. التى فاتها قطار الزواج..

تزّوج الإثنان بدون فرح أو عزايم.. فقط أقرب الأصدقاء في دار المناسبات المحيطة بالجامع.. في عقد القران..

الحياة كانت هادئه بينهما إلى أقصى حد.. لا يعلو «الرتم» ولا ينخفض.. فكلاهما يعلم تحديدا لماذا ارتبط به الآخر.. والاثنان لا يجيدا التمثيل والاصطناع..

كانت تعلم تمامًا أنّها بالنسبة له.. إمرأه متعلمة ومن عائلة كبيرة يكتمل بها المظهر الإجتماعي الجيّد له.. كما أن رغباته الجسدية لازالت على قيد الحياه..

حملت «موني» في الشهر الثاني للزواج.. وهنأها هو بفتور وأوصلها بيت أهلها قبل أن يسافر لإنهاء بعض الأوراق المتعلقة باستيراده بعض المعدات من الخارج..

□□□

مّرت شهور الحمل بصعوبة شديدة.. و«موني» لا تقوى على مغادرة بيت أهلها.. فكان حتمًا عليه أن يحّل ضيفًا عندهم لأيام قليلة بين كّل سفر للخارج..

كان يوم ولادة «ابنتها» يوم ميلاد الأمل الذي انتظرته وضحّت بكّل شيء لأجله.. ولم يكن اختيار الإسم صعبا قط.. البنت اسمها «أمل»..

استمّرت الحياة بين «موني» وزوجها على الريتم نفسه.. التزام متبادل بالواجبات المطلوبة.. وكأن الحياة بينهما معادلة حسابية محسومة النتيجة وإن أعيدت ألف مّرة..

ما كان يحّرك فيهما ساكنًا هي «أمل».. فقط.. «أمل»..

مرحلة خلف الأخرى وهي الدليل الوحيد على وجود حياة في هذا البيت الصامت.. أول خطوة.. أول سنّة.. أول كلمة.. أول حرف..

أحاطت «موني» ابنتها بقدر كبير من الرعاية.. والحرص الذي كان يشعر «أمل» في أوقات كثيرة بالضيق..

«على» يسافر كثيرا.. و«موني» لم تترك «أمل» لحظة واحدة.. خافت عليها من كل شيء.. وحاولت إخفائها من كل شيء..

أحياناً يكون للقيود فوائد.. فهذا الحرص والتشدّد جعل من أمل فتاة متفوقة لأقصى درجة فهي الأولى بلا منازع طيلة سنوات دراستها.. لم يكن مسموحًا لها أن تضيّع وقتًا بالساعات أمام مرآة.. لم يكن مسموحا أيضًا أن تلّون وجهها بمساحيق النساء.. فقط كان مسموحا لها أن تدرس وتذاكر وتتعلم..

□□□

بالتأكيد.. التحقت بكلية الطب.. وهناك في الكلية.. حيث لا مدرسين ومدرسات تعرفهم أمها فردا فردا.. استطاعت أن تخلق لنفسها شخصية جديدة.. منطلقة.. مرحة.. مجنونة.. استطاعت أن تكون الشخصية التي حلمت أن تكونها منذ أمد بعيد.. حتى إن اسم «أمل» أصبح لا يروقها على الإطلاق.. فهو اسم «دقة قديمة» كما أن صديقتها أشارت لها بأن شكلها «يدِّي» على «ليلى»..

- مممممم.. حلو.. تصدّقي.. خلاص من النهاردة قولولي «ليلى»..

مّرت سنوات الكلية و«أمل» تحمل في طياتها شخصيتين.. أسمت إحداهما «ليلي».. وكانت تقتل «ليلى» بمجرد أن تخرج من باب الجامعة..

قبل سنة البكالوريوس.. نجحت «أمل» أن تأخذ موافقة أمها بعد إلحاح مرير في الذهاب إلى رحلة مع صديقاتها في الكلية.. واصطنعت بكاء المقهورة التي لا تشعر بحنان الأ ب الغائب دوًما.. فرقّ قلب «موني» ووافقت..

□□□

في الرحلة.. جلست مع نفسها طويلا على الرمال بعد نوم الجميع.. وراجعت شريط حياتها مرارا وتكرارا.. بل إنّها راجعت قصة أّمها مرات عديدة.. كل ما فيها يرفض أن تكون نسخة من أمها.. الفتاة التي يحيطها أهلها بكل الحرص ويريدون منعها من أية تجربة..

هي استطاعت في سنوات الكلية أن تصنع شخصية فتاة مرحة.. تحب جميع صديقاتها محادثتها والجلوس بجوارها في السكاشن والمحاضرات..

ها هي أمها.. عاشت حياة مغلقة.. قبل أن تتزّوج «صالونات» وتقنع نفسها أنّها تحب زوجها.. قبل أن يطلقها.. وتضطر للزواج من والدها الذي يكبرها بسنوات طويلة.. وبالكاد يظهر في حياتها كل حين وحين..

وفي جلستها .وأت شاب ًا من الزملاء.. يخرج من خيم الشباب من بعيد ويمشي أمام البحر في الظلام الدامس وقدماه تتخبطان في المياه وهي تتهادى على الشط..

كانت «أمل» تجلس أسفل صخور قريبة من مخيم البنات.. حيث لا إضاءة مطلقًا.. مما جعل وجودها سرًّا لم يعلمه هذا الشاب..

في هذا الصمت الكوني أمام الشاطئ.. كان مسلي ًا جدا أن تتابع خطوات هذا الزميل الذي لا تعرف من هو.. ولم تتبيّن ملامحه.. ولكنها سمعت صوته وهوا يغني وحيدا على الشاطئ..

«أنا لاأعرف شيئ ًا عن حياتي الماضية.. أنا لا أذكر شيئا عن حياتي الأتيه »..

ابتسمت في تعجّب من اختياره المأساوي في هذه الأجواء الشاعرية..

وأطرقت برأسها في اتجاه آخر محاولةً مواصلة حبل أفكارها..

لأ.. مش عاوزة الحياه دي.. انا مش عاوزة أكون أم بتخنق عيالها عشان موراهاش غيرهم.. ومحدش بيسألها غير سؤال واحد بس.. « محتاجة كام؟ ».

بس هوا بردو بابا شغله كده.. هيعمل ايه يعني.. ماهو لازم يسا...

قاطعها صوت هذا الشاب الغريب وهو يكلّم نفسه أمامها بخمسة أمتار تقريباً وهو لا يراها ولا يعلم بوجودها..

- يعني هوا أنا لو حبيت وإتحبيت هيجرى إيه يعني؟؟ هتشّل؟؟ هيجيلي صرع ؟؟

ما هو فاضل سنة واحدة وبعدها شغل شغل شغل.. وأمي بقى تجّوزني بطريقة الخطبة..

كان يتحدّث بعصبية شديدة ويصمت قليلا.. ثم يكمل..

- يعني (حسني) المعففن ده.. بتحبه بنت زي القمر.. وأنا مفيش واحدة في الدفعة تعرفني غير عشان تصور محاضراتي؟؟ ايه اللى انا فيه ده؟؟ أووووووووووووف.. بتحبه عشان هيبقى دكتور؟؟؟ طب منا هبقى زفت.. ليه بقى مفيش واحدة عبرتني؟؟

واجهت «أمل» صعوبة كبيره في حبس ضحكتها.. على ذلك المجنون الذي يحادث نفسه بهذه العصبية.. الثالثة فجراً على البحر.. في عز الضلمة..

لم تمر ثوان إلا وهي تقول لنفسها في غيظ.. «وانا هضحك ليه.. ما أنا حالي حاله»..

انتهت ليلتها بأن انتظرته قليلاً حتى عاد إلى مخيم الشباب وذهبت هي إلى مكان نومها..

□□□

في اليوم التالي.. قامت الفتيات وأحضروا الإفطار.. في حين قام شباب الرحلة مع المشرف والكشافة لنصب خيمة يأكلون فيها..

سمعت أحدهم يحادث صديقه بصوت عالى وهو يحمل أمامه طاولة الطعام..

- «انتا طلعت تعمل ايه بالليل يا بني انتا؟؟»

- ملكش دعوة يا عم (حسني) الله لايسيئك.. ما نتا صدعتني بحكاياتك فطلعت أتمشى شوية..

يبقى هوا ده.. هكذا قالت عيناها الجاحظتين وشهقتها غير الإرادية.. التي لم يلحظها سوى صديقتها المقربة..

- مالك يا بت يا «ليلي»؟

- شششش.. بعدين أحكيلك.. هتفضحينا.. وطي صوتك..

- بعدين.. يعني بعد الأكل علطول.. وإلا هروح أساله هوا.. هه..

- لا والنبي.. هحكيلك.. يخرب بيتك خلاص.. بعد الأكل..

انتهى الإفطار.. وبدأت «أمل» أو «ليلى» في سرد الحكاية لصديقتها.. التي استمعت في إنصات تام.. ثم بادرت..

- ده مش أي زميل يا «لولّا».. ده حسن عبد الحميد الحوفي على سنّ ورمح.. ده من أوائل الدفعة..

بصّي يا لولو.. أنا هعملك خطة متخّش الميّه..

- خطّة؟؟ والنبي تتلهي وتنقطينا بسكاتك..هي حرب؟

- كده بتغلطي في يويو حبيبتك؟ خلاص يا ختي مليش دعوة..

□□□

مّرة أخرى على شاطئ البحر.. بعد سنتين من التكليف.. ولكن شاطئ ليفربول.. وبدون صديقتها صاحبة الخطّة.. وبدون.. « حسن »..

جلست وحيدة.. وتذكرت ليلة معسكر «باجوش».. ولكن اختلف الموقف قليلا.. فهنا العاصمة الإنجليزية تضيء من حولها بألوان كثيرة..

شخص واحد فقط.. دّمر حياتها بكل ما تحمل الكلمة من معنى..

«حسني».. الذي ادّعي انه يريدها في أمر مهم يخصّ حبيبها «حسن» وقابلته على الفور على شاطئ سان ستيفانو بعد خروجها من مستشفى الجامعة..

أعطاها العصير المشئوم.. وبعدها.. صار ما صار.. وعرف « حسن » وانتهى الأمر.. إلى الأبد..

- انتي مصرية؟؟

التفتت في حدّه ودهشة.. لتجده شاب مصري وسيم.. ينظر إليها ويمدّ يده بمنديل..

أطرقت برأسها في صمت وهي تلتقط المنديل وتمسح دموعها..

- ممكن أقعد قريب منك؟؟ ولا هكون بضايقك بقى وبعمل شغل المصريين وكده؟

ابتسمت ابتسامة باهتة.. وحركت رأسها إيجاباً.. فجلس..

- مش هقولك مالك بقى والجو ده.. بس هقولك حكايه هتديكي أمل..

اتسعت ابتسامتها وزفرت ضحكة مستهزئة وهي تسأله باستنكار..

-أمل؟؟

- آه أمل.. هي كلمة عيب ولا ايه؟؟

لم ترد عليه في حين نظرت إلى البحر أمامها.. في صمت..

- أنا يا ستي.. اسمى «حبيب» وجيت ليفربول هنا مع خالي اسمه «حبيب» بردو.. كل ما تزنّق معايا.. بفتكر حكايته يجيلى أمل كده..

ابتسمت ابتسامة أخرى.. فأكمل..

- ايه حكايتك مع أمل يعني؟؟ مش فاهم أنا.. أمشي يعني؟ مضايقك؟

- لا لا مش كده أبدا.. أنا آسفة والله.. أصل أنا اسمى «أمل».

- أهاااااا.. آي سي.. طيب تشرفنا يا ست «أمل».

- أحكيلك بقى..

ساعتان كاملتان و«حبيب» يروى لـ «أمل» قصة خاله «حبيب»..

وهي تنصت له والأمواج تتلاطم أمامها وهي تعقد يديها أمامها لتختبئ من هذا البرد القارس..

- انتي بقى جيتي هنا مع مين؟ بتدرسي؟

رّمت عليه دون أن تلتفت ناحيته..

- لا مش بدرس.. أنا بابا بيستورد قطع غيار سفن وكده.. وجيت أقعد معاه عشان زهقت من مصر..

- انتي خريجة ايه صحيح؟

- طب بشري.. بعيد عنك..

- دكتورة يعني.. يا سيدي يا سيدي..

- طب ماتيجي تتجوزيني والنبي وتصرفي عليا.. الدكاترة هنا مرتباتهم جوز اللوز..

لم تستطع حبس ضحكة صافية خرجت منها وهي تنظر له بطرف عينها..

- نبقى نشوف الحكاية دي..

□□□

ستة أشهر كاملة وهما معًا.. هي تسعى لعمل دراسة في الجامعة لكي يتسنى لها أن تكمل حياتها في ليفربول..

وهو يعمل في توكيل خاله «حبيب» لقطع غيار السفن.. ونجح أيضا في عمل علاقة وطيده تجمعه هو وخاله «حبيب» ووالد «أمل»..

اتصل خاله «حبيب» بأخته «نجوى» لإخبارها بأن ابنها «حبيب» وجد بنت الحلال.. الدكتورة «أمل»..

برغم أنه كان في حيرة من أمره بقبول زواج ابن أخته ببنت «منى» طليقة أخيه «عمرو» إلا أنه حسم قراره وانتصر للحب..

رفضت نجوى هذه الزيجة رغم محاولات مضنية من «حبيب» -ابنها- لإثنائها عن قرارها.. ولم يختلف الحال كثيرا مع «منى» التي أخبرت «أمل» بأن تختار أىّ زوج آخر.. غير هذا الذي قد يتسبب الزواج منه في صنع مواقف قد تجمعها ب «عمرو» يومًا ما.. ولكنّها في آخر حديثهما على الكاميرا.. بكت وقالت لها «اتجوزي اللى بتحبيه يا حبيبتي.. ومتخسريهوش.. متعمليش زيي»..

في مصر حاولت «نجوى» أن تجد أي سبب مقنع لإقناع ولدها بالابتعاد عن «أمل».. لم يكن صعباً عليها أن تصل إلى الفيديو الذي كان سببا في إفساد قصة الحب الأولى في حياة «أمل»..

ولكن كلمة واحدة منه أنهت كل آمالها في إفساد هذا الارتباط..

- ماما.. أنا عارف كل حاجة.. هي حكتلى كل حاجة من أول ما اتعرفنا..

أرجوكي يا أمي.. أنا بحب البنت دي.. ومعنديش استعداد أخسر واحدة بحبها.. وانتى أكتر واحدة عارفه يعني ايه واحد يخسر حبيبته..

أغلقت الهاتف بعد أن أخبرته.. أن زواجه من «أمل» يعني نهاية العلاقة بينه وبينها..

برغم رفض «نجوى» وتحّفظ «منى».. إلا أنه لم يّمر سوى ثمانية أشهر أخرى.. وكان الحفل جاهزا لاستقبال العروسين.. في حديقة «سيفتون بارك» الساحرة.. في حضور رجال الأعمال أصدقاء والدها.. وبعض أعضاء الجالية المصرية في ليفربول.. وكذلك زملاء «أمل» في الجامعة وبعض أساتذة الجامعة..

رقص «حبيب» - خال العريس- مع زوجته الدكتورة «بسمة» في حين أنّ رقصة «حبيب» وعروسته «أمل» كانت تبدو للجميع وكأنها على كوكب آخر..

مال «حبيب» على أذن «بسمة» وهمس لها..

- مش بيفكروكي بحاجة الولاد دول؟؟

- شكلي هتكرش من الشقة النهاردة يا بابا.. قالتها «زينب» وهي تمسك بالكاميرا وتصّور كل مايحدث..

- ضحك الزوجان.. وقال «حبيب» وهو ينظر في عيني «بسمة» مباشرة..

- خليكي فاكرة يا (زيزي)دايمًا.. أبسط قرار في حياتك ممكن يقلب حياة ناس كتير أوي حواليكي..

- فاكرة يابابا .. ركّز بس فاللى فايدك.. عشان بقالك انتا وماما أد ايه مارقص....

قاطعها صوت المايك الذي أمسك به (حبيب) –العريس- وطلب الاستماع من الحضور بالانجليزية ثمّ ..

“Ladies and gentlemen, I’d like to give a small gift to my wife and my uncle (Habib) family... it’s an Arabic song, written by him,the melody by his daughter (Zainab)”

إلتفت (حبيب) إلى ابنته متفّهماً بهّزة رأس ..

أشارت بإبهامها لأعلى مبتسمة.. وهي لازالت تصّور بالكاميرا..

فيما بدأت الموسيقي الخاصّه بالأغنيّه وبدأ (حبيب) يغني وهو يقلّد حركات (محمد منير) في مرح.. وهو يقّسم نظراته بين زوجته وبين خاله (حبيب) وزوجته (بسمه)..

"مش هنضيع .. بعد البرد اللى يمّوت بييجي ربيع..

مش هنضيع .. بعد الأم ماتتألّم بييجي رضيع.. "

وبينما يغّني أشار بيده إلى بوابة الحديقة ليلتفت الجميع .. وتصرخ (أمل) فرحاً وتنزل مهرولة نحو أّمها التي سّرعت خطوتها وهي تمنع دموعها بصعوبة بالغه..

تمت بحمد الله...

-10 عوده ...

لم يكن منطقياً أن تفكر فى العودة لمنزلها بعدما لطّخت شرفها بدافع الحبّ وانتهى أملها تماما فى الحصول على زوج وأسره..

سافرت إلى الأسكندرية .. حيث لا يعرفها أحد .. آملةً أن تجد مأوى وعمل تستطيع معه أن تبقى على قيد الحياة ..

افترشت الرصيف والتحفت بالسماء فى موقف سيارات كبير بشارع ونجت.. بقيت على هذا الحال أسبوعين حتى الآن.. يعطف عليها المارة ببعض الجنيهات ..

تساعد البوابين في غسل سيارات السكان وتحصل على بعض المال.. وتنام على الرصيف فى موقف السيارات أو فى الجراج أسفل أي سيارة..

لمحت رجلان يحاولان نقل سيده شابة من السيارة الى "ترولى" مستشفي الأمراض العصبية المقابل للموقف..

استفزها منظر السيده وهم يحاولون نقلها وتتطاير ملابسها بفعل الهواء بعض الشيء .. فإنطلقت باتجاههم وحاولت أن تمسك بملابس الشابه المريضة التى تعني من حالة هستيرية بعض الشيء..

شكرا يا أختي .. متشكرين

قالها الرجل البدين وهو يمدّ يده بعشرون جنيهاً .. فيما تعفّفت هي عن أخذ المال ..

لا يا بيه .. ولا شكر ولا حاجة .. ربنا يعفي عنها يارب .. انا معملتش حاجة آخد عليها فلوس..

على مدار شهرين كانت الزيارات مستمرة للسيدة المريضة .. من زوجها وأخيها..

□□□

خدي يا ليلى .. تعالي

إيوه يا بيه ؟ الهانم بقت كويسة دلوقتي؟؟

الحمد لله يا ليلى بقت أحسن .. وهننقلها دلوقتي مستشفى فى القاهره.. بس أنا عاوزك ف حاجة تانيه..

خير ياباشا .. أأمرني ..

انتي بقالك فالمنطقة هنا حوالى شهرين أو أكتر.. وأنا سألت عليكي البوابين اللى هنا وشكّرولي فيكي ..

الحمد لله ياباشا .. بس لامؤاخذه أنا مش فاهمه حضرتك بتسأل عني ليه ؟؟ هوا ايه العبارة يعني؟؟

قالتها وهي ترتجف وتخرج منها الحروف بصعوبة بالغه..

مالك يابنتي قلقتي ليه كده .. مفيش حاجة .. أنا بس شفت حنيتّك على المدام لما كنا بننقلها.. وكمان حسّيت إنك تستاهلى مكان أحسن تعيشي فيه.. ففكرت إنك تيجي تشتغلى عندي فالمستشفى بتاعتي فالقاهره..

هوا حضرتك عندك مستشفى؟؟

أيوه يا ليلى .. عندي مستشفى أمراض نفسية وعصبية زي دي كده..

نفسية وعصبية؟؟ لا يابيه .. أنا نخاف صراحه على نفسي حد يعني مالتعبانين يقتلنى ولا يعمل فيا أي نصيبة.. معلش مش هقدر..

الموضوع مش زي مابتشوفي فى الأفلام القديمة يا ليلى .. الحالات اللى فى منها قلق .. بيبقوا ف عنابر منفصلة .. مش وسط الناس كده..

يعني مفيش قلق ياباشا والنبي ؟

لا مفيش قلق خالص ياستي .. وهناك هوفرلك سكنك والأكل والشرب ف(الميز) فالمستشفى..

طب ياباشا .. لامؤاخذه بس سيبني يومين كده افكر..

□□□

تحدّثت وقت العشاء مع عّم(عيد).. بواب العمارة المجاورة للموقف.. والذي دعاها منذ فترة لتتناول معه العشاء يوميا بين زوجته وأولاده..

ايه رأيك يا عم عيد؟ أروح أشتغل فالمستشفى دي ولا ايه ؟ شور عليا الله يخليك..

بصي يابنتي .. انتي من يوم ماجيتي المنطقة هنا ومحدش شاف منك حاجة وحشة.. وعشان كده أنا خليتك تبقي وسطينا..

ومفهوم إن في مشكلة عندك خلتك تسيبي بلدكو وتيجي هنا.. وأنا مسألتكيش ومش هسألك عنها.. بس اللى باينلى إنك مش وش بهدله.. متفرحيش بالشهرين تلاته اللى علّو على خير.. كلاب السكك مش هتسيبك ف حالك .. خصوصا انك لسه خضرا وفي عّز شبابك..

روحي إشتغلي مع الراجل ده .. وهيبقالك سكن محترم ومكان أمان تعيشي فيه.. لحد ماربنا يكرمك بابن الحلال أو يحلّلك مشكلتك وترجعي بلدكو وسط أهلك وناسك..

والله ياعم عيد أنا مش عارفة نقولك ايه .. انتا خدت بالك عليا وأنا فاهمه وعارفة إن المكان لو كان يساعني كان زمانك بتخليني أبات وسط عيالك.. إلهي ربنا يجبر بخاطرك ويكرمك يارب.. أنا بردك قلت أروح أجرب وأشوف ايه اللى هيحصل.. وأهو لو حصل حاجة هتصل عليك علطول..

ربنا يوفقك يابنتي وينّور طريقك .. ويهديكي لنفسك يارب..

ايه ياجماعه .. قطعتوا قلبي والله .. (قالتها زوجته (أم مصطفى) وهي تمسح قطرة تبّت من عينها) ..

ثم استطردت ..

هتسافر وهتلاقى مكان أحسن من هنا 100 مرة وهتبقى عال العال .. واحنا مش هنسيبك يابتّي وهنسأل عليكي علطول..

ربنا يخليكي يا أم مصطفى .. أنا مليش غيركو والله.. هتوحشوني أوي ..

□□□

كانت غرفتها بمشفى الدكتور حاتم أكثر بكثير مما تمنّته يوماً ما.. الغرفة بها تلفاز ملّون .. وثلاجة وسرير لم تمتلك مثله يوماً ..

كما أنّ الرجل .. كان يعاملها معاملة لطيفة ويذكرها دوماً باليوم الذي رفضت فيه العشرين جنيهاً رغم ضيق حالها.. ومنه استنتج طيب أصلها..

اعتادت (ليلى) على المكان والعاملين وأصبحت مسؤوله بدرجة كبيرة عن المطبخ والميز ..

من آنٍ لآخر كان الدكتور (حاتم) يأخذها معه فى السيارة للأسكندرية لتلتقي بأسرة (عّم عيد) كما طلبت.. كما أنها فى بعض الأحيان تقضي الأجازات هناك في منزله تساعد زوجته (مدام نجوى) بأجرٍ مجز..

حيث صارحت هي الدكتور حاتم بأنها لاتستطيع أن تذهب فى الأجازات إلى بلدتها .. كما أنها لا تستطيع أن تبقى دوماً في المستشفى لأن الجميع سيعلم أنّها بدون أهل.. مما استلزم أن تقصّ عليه قصتها..

□□□

سنة واحدة مّرت على عملها الجديد في المستشفى .. حتى استدعاها الدكتور حاتم إلى مكتبه ..

اتفضلى ياليلى .. اقعدي

انشالله تسلم يادكتور..

في موضوع عاوز أكلمك فيه .. وعاوزك تفكري فيه كويس..

خير يادكتور . قلقتني ..

ايه رايك في اسماعيل السواق ؟

رأيي ؟؟ وأنا مطلوب رأيي فيه ليه يعني حضرتك.. فهمني معلش..

عشان هوا طالب ايدك مني ياليلي ..

يانهار إسود .. يالهو بالي .. طب منتا عارف ياسعادة البيه انه ماينفعش ..

قالتها وقد وضعت وجهها بين كفيها وتعالت نبضاتها وأنفاسها ..

ياليلى .. في ألف بنت حصلها زي ما حصل معاكي.. بس عاشوا واتجوزوا وخلفوا والدنيا بتمشي مبتقفش على غلطة.. وبعدين سيبي عليا الحكايه دي.. أنا هفهمه إن حصلك حادثة زمان وده السبب ف اللى جرالك..

بعد محاولات إقناع طويلة .. وافقت ليلى أن تفكّر فى الأمر وتردّ على الدكتور في إجازة أخر الشهر.. حين تذهب معه للأسكندرية .. لتأخذ رأي (عم عيد)..

□□□

وافقت ليلى على الزواج من (اسماعيل) السواق الخاص بالدكتور (حاتم).. وتكفّل الدكتور (حاتم) بتكاليف زواجها. وقام بالدور الذي يقوم به أيّ والد تجاه ابنته أو أخته الصغرى ..

تقبّل (اسماعيل) أنّ ليلى تركت أهلها نتيجة لرهبتها الشديدة من والدها وأخوها بعدما حدثت معها حادثة إغتصاب.. كما أخبره –كذباً- الدكتور حاتم..

عشر أعوام من الزواج مّرا على ليلى وإسماعيل.. فيما مّر خمسة أعوام فقط على إبنيهما (عودة)..

أصّر (اسماعيل) على هذا الاسم ليكونمحفزاً لها دوماً من أجل عودتها يوماً ما إلى أهلها وبلدتها..

في أثناء ذهاب ليلى مع اسماعيل لزيارة (عم عيد) قبل عيد الأضحي بأيام.. لم يتمكّن إسماعيل من الإقتراب من الموقف الذي اعتادا أن يتركا فيه السيارة عند زيارتهم لعم عيد..

تجّمع غير عادي لسكّان المنطقة أجبر (إسماعيل) أن يترك السيارة بعيداً بعض الشيء.. ويكملوا المسافة الباقية على الأقدام..

إخترقا التجمع بصعوبة بالغة حتى بدا لهما المشهد واضحاً من بين الحشود..

رجل يبدو أربعينيًّا سقط من الأعلى.. تهشّمت عظامه كما يبدو.. وحوله بركه من الدماء..

يهمهم النّاس من حولهم بالحكاية.. يسمعا كلمات مبعثرة من هنا وهناك ..

مهندس .. بنته .. حادثة .. ميكانيكا.. خطفوها..

تخفي عين ابنها (عودة) عن المشهد.. وتوكز زوجها ليكملا طريقهما..

يصلا عند (عم عيد) الذي عاد لتّوه من مكان الحادث.. ليروي لهما مايعرفه..

ايه ياأبو مصطفى.. ايه الحكايه؟

اللى نعرفه يابني إن المهندس (أحمد) بنته اتخطفت من ييجي أسبوعين كده.. والصبح لقوا جثتها.. وهدومها كانت متقطعه وكده.. الراجل متحملش الصدمة ورمى نفسه من عالسطوح..

لاحول ولا قوة إلّا بالله

كل واحد بياخد نصيبه ياعم (عيد)

عندك حق يابني .. المهم انتو عاملين ايه مع الدكتور ياولاد؟

والله ياعم (عيد) الراجل كويس معانا الحمد لله وبيعاملنا زي مايكون اخونا الكبير..

ماقلتليش يابني صحيح.. هوا انتا بدأت معاه ازاي؟

(يبتسم اسماعيل) أبداً.. هوا كان بيسوق لنفسه الأول .. وف مرة خبط واحد عشان الفرامل مساعدتوش يلحق يفرمل.. فالراجل مات ومراته جالها صدمة عصبية من منظر الدم.. ومرة كده وقفني بالتاكسي اللى كنت شغال عليه وقالى أوصله مصر خصوصي .. بس.. عجبته سواقتي وشغلني معاه..

هنا قاطعتهم (أم مصطفى):

خليكو اتكلموا انتو الاتنين كده.. لحد ما الأكل هيبرد وانتو مكلتوش حاجة..

واستطردت وهي تمّد يدها بالطبق لليلى:

أكّلي ابنك ياليلى يابنتي .. وسيبك مالرجالة اللى بتحكّي عالأكل دي.. باين أكلى مبقاش يعجب..

ابتسم الجميع فيما ضحك (عم عيد) حتى ظهرت اسنانه المتهالكة واهتز جسده الضعيف من شدّه الضحك

هوا أنا أقدر يا أم مصطفى.. دانتى طبيخك هوا اللى مخليني عامل ريجيم علطول كده...

هنا ضحك الجميع عدا زوجته التي قامت من فورها فيما أمسك بطرف عباءتها وهو يقاوم الضحك..

بهّزر والله يا(نبويّه) .. إيه ياوليّه مبتهزريش؟

□□□

ماتخافيش ياحبيبتي .. مش هيحصل حاجة وحشة..

كانت فرائص (ليلى) ترتجف وهما يقتربان بالسيّارة من قريتها.. بعدما قّررت – أخيراً- أن تعود وليكن مايكون..

اقترب (اسماعيل) بالسيّارة وقد أمسك يدها بيده اليمنى مطمئناً ..

دخلت السيارة القرية بعد صلاة العشاء مباشرة.. فقد اختارا أن يصلا فى الظلام تقليلاً من حجم المشاكل التي حتماً.. ستحدث..

في حذرٍ شديد.. ترجّل (اسماعيل) من السيّارة على بُعد نحو مائة متر من أبو (ليلى) الذي بدا شارداً تحت شجرة خلف منزلها القديم يطالع القمر في صمت.. وقد أمسك (الجوزه) وهو ينفث دخانها فى بطء..

أمسك (اسماعيل) يد ليلى التي لم تعد تستطيع أن تحمل نفسها.. وباليد الأخرى حمل ابنهما (عوده) وسارا مترقبان نحو الرجل الذي لم يلمحهما على الاطلاق .. حتى اللحظة..

مش قادرة لأ .. ياللا بينا نرجع

همست لزوجها برعب شديد..

نرجع ايه بس دلوقتي .. أبوكي هناك أهو .. روحيله ولو حصل مشكلة هاخدك ونمشي وخلاص..

هنا صاح (عوده) بصوت مسموع :

هوا اللى هناك ده جدوو ؟؟

أيوه ياحبيبي بس متعليش صوتك ..

لم يكمل (إسماعيل) جملته إلّا وقد انزلق (عوده) من يده وانطلق يعدو نحو جدّه.. فيما تصلّب الإثنان في انتظار المجهول..

لم يستطعا أن يسمعا ما يدور بين ابنيهما وجدّه وهو يجلسه على "حجره" ويبعد الجوزه بعيداً.. كما أن ملامح وتعبيرات وجهه لازالت مبهمه وسط هذا الظلام..

تعالي ياماما .. تعالي.. (صاح عوده ببراءه)

بخطوات متثاقلة تقدّم الإثنان .. حتي بلغت المسافة نحو عشرة أمتار.. فتسمّرت أقدامهما تماماً..

دون أن يرفع رأسه نحوهما قطع الصمت الذي ساد لثوانٍ:

نهّيتكي واجفة عندك إيّاك؟ يعني وِلدك يعرف الأصول وانتي نسيتيها يابت الأصول؟ تعالي لحضن أبوكي يابت الجزمة ..

انهرمت دموعها بغزارة وهي تلقي بجسدها فى حضن والدها الذي لم يستطع بدوره أن يُخفي دمعة هربت من عينه..

بعد دقيقة قام حاملاً حفيده ومدّ يده نحو (إسماعيل) مصافحاً:

لامؤاخذه ياولدي.. أني بضّحك مع بتّي مش جصدي نشتمَك..

ابتسم (اسماعيل) وهو يصافحه بحرارة وقد تساقطت دموعه هو الآخر وأردف:

ولا يهّمك ياعّمي .. اشتم براحتك.. هي أصلاً تستاهل الشتيمة بيني وبينك..

لم تستطع (ليلى) إلّا أن ضحكت ضحكة متقطّعه من بين دموعها وقد احتضنت والدها من ظهره وأراحت رأسها على كتفه الأيمن..

-تمت بحمد الله-

المحتويات

القصة	صفحة
إهداء	5
مقدمة ملهاش عازه أصلًا	7
1- «عمرو» البنداري...	9
2- ورقة.. ودماء..	23
3- طبيب جراح.....	29
4- بالمقلوب....	37
5- لقـاء....	43
6- حبيبي.. فاتنا الطريق...	51

7- شاهد على العصر.....	59
8- عـوده.....	65
9- ضد التيار.....	81
10-الحبيبان	

كلمة الخلف

عشر قصص قصيرة.. غالباً ستقرأها أكثر من مّره واحده.. وحتماً ستجد فيها شيئاّ منك ..

لأنّها رغم بساطة أحداثها جميعاً.. تعبّر –إلى حدٍّ بعيد - عن الحية التي لاتمنحك الأمل دوماً ولا تمنعك عنه دوماً ..

ابحث عن نفسك بين السطور .. فربّما تقرأ مستقبلك.. أو تتفاداه..

فالحكايات –عادةً – ما تعيد نفسها ..

جاسر الأنور